دروس من هدي القرآن الكريم

سلسلة دروس رمضان

(الدرس الرابع عشر)

سورة آل عمران

من الآية (٩٣) إلى الآية (١١٦)

ألقاها السيد/ حسين بدر الدين الحوثي

بتاريخ: ١٤ رمضان ١٤٢٤ هـ

الموافق: ٨/١١/٢٠٠٣ م

اليمن - صعدة

هذه الدروس نُقِلَتْ من تسجيل لها في أشرطة كاسيت،

وقد أُلْقِيَتْ ممزوجة بمفردات وأساليب من اللهجة المحلية العامية،

وحرصاً منا على سهولة الاستفادة منها أخرجناها مكتوبة على هذا النحو.

إعداد/ يحيى قاسم أبو عَوَّاضة

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين، وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

اللهم اهدنا وتقبل منا إنك أنت السميع العليم، وتب علينا إنك أنت التواب الرحيم.

ينبغي على كل واحد منا أن يفتح ذهنه بالنسبة للماضي من الآيات التي قد سمعنا لا يُعتبَر أن كل آيات يكون لها موضوع مستقل عمَّا قبلها، بل هو سياق واحد كله، ففي الآيات السابقة سواءً ما سمعناه في (سورة البقرة) أو في (سورة آل عمران) تركّز بشكل كبير على موضوع التسليم لله سبحانه وتعالى، هذا هو لب القضية، أساس الدِّين: التسليم لله. أن يكون الإنسان موطناً نفسه فعلاً أن يكون مسلِّماً لله ومطيعاً لله. وقد حشد حشداً هائلاً جداً في القرآن الكريم مما هو من قصص الماضين ما يتجلى من خلاله أهمية التسليم أو خطورة عدم التسليم، كما سيأتي بعد من خلال الآيات التي تناولت الحديث عن معركة (بدر) وعن معركة (أُحُد) كيف كانت خطورة عدم التسليم خطورة كبيرة؛ لأن التسليم لله سبحانه وتعالى إضافة إلى كونه حالة نفسية عند الإنسان هو أيضاً حالة في الواقع يتجلى من خلال طاعة واتباع وانقياد وتوجُّه وفق ما أمر الله – سبحانه وتعالى – ورسوله.

هنا في موضوع الإنفاق أول الآيات التي سمعناها: ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾(آل عمران:٩٢) بعد الحديث الكثير والتشجيع الكبير على الإنفاق نبه الناس بأنه كما قال سابقاً: ﴿وَمَا تُنفِقُونَ إِلاَّ ابْتِغَاءَ وَجْهِ اللّهِ﴾(البقرة:٢٧٢) أليس كذلك؟ إذاً فـ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ﴾ لا ينبغي للإنسان أن يبحث عن الشيء الذي لم يعد يعجبه ولم يعد يريده وليس له قيمة عنده وينفقه. يأتي التوجيه على هذا النحو بعد الكلام الكثير حول أهمية الإنفاق والتشجيع الكبير على الإنفاق من خلال مضاعفة الأجر ومن خلال الوعد بأنه سيُخلف، أي: هذا باعتباره كأسلوب بأن يقال للناس بأنه: ينبغي أن تنفقوا مما تحبون.

لو قلتَ لإنسان من البداية: انفق مما تحب، قد تكون قضية فيها ثقل على نفسه، لكن بعد حديث كثير وواسع على أهمية الإنفاق وأثره والوعود العظيمة بمضاعفة الأجر وبأنه سيخلف على من أنفقوا كان مناسباً جداً أن يأتي بالتوجيه حول أنه ﴿لَن تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فَإِنَّ اللّهَ بِهِ عَلِيمٌ﴾(آل عمران:٩٢) الله يعلم – مثلاً – بالشيء الذي تنفقه لا يمكن مغالطة في الموضوع، أن تقول هو مما أحب وهو في الواقع ليس مما تحب؛ ولأن الشيء الطبيعي بالنسبة للإنسان الذي يعرف أهمية الإنفاق وهذه الفضيلة العظيمة هو ألاّ يتراجع عن أن ينفق مما يحب، ومما يحب لا تعني: أَحب ما لديك، بل مما هو محبوب لديك ﴿وَلاَ تَيَمَّمُوا الْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِآخِذِيهِ إِلاَّ أَن تُغْمِضُوا فِيهِ﴾(البقرة:٢٦٧) إذا لم تقبله أنت إلاّ على تغاضٍ.

هذا توجيه هام بالنسبة للإنسان المؤمن الذي يريد من خلال ما ينفق أن ينال البر وأنه ينفق ابتغاء وجه الله ابتغاء مرضاة الله سبحانه وتعالى.

في آية هنا أيضاً لها علاقة بموضوع بني إسرائيل قول الله تعالى: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرَائِيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(آل عمران:٩٣) يُبيِّن بأنه حصل فيما بعد تحريم على بني إسرائيل لأشياء هي مما كانت – سابقاً – حلالاً كعقوبة عليهم. يُبيِّن هنا كيف كان التعامل من جهة بني إسرائيل مع التوراة، وهذه فيها ما يكشف بأنهم كانوا يخفون التوراة وينطلقون هم بديلاً عن التوراة، ما يقدِّمونه هم، ما يفسرونه هم، ما يكتبونه هم؛ لهذا قال: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾ هاتوها، أليست هذه فيها – مثلما تقول – أشبه شيء بتحدٍّ؟ هاتوا التوراة ﴿فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ فيذكرون محرمات مُعيَّنة، حول موضوع محرمات وما محرمات دعاوى هي مخالفة للواقع ومخالفة لِمَا هو مكتوب في التوراة.

إذاً فإخفاء التوراة كان قضية ثابتة لديهم أو تعاملاً قائماً لديهم كما قال الله عنهم في آية أخرى: ﴿تَجْعَلُونَهُ قَرَاطِيسَ تُبْدُونَهَا وَتُخْفُونَ كَثِيرًا﴾(الأنعام:٩١) وتخفون كثيراً؛ لهذا لا نعرف الآن أن التوراة لا تزال موجودة، هناك ما نعرفه من خلال ما يسمونه: (العهد القديم) تجد أنه ليس التوراة، يوجد داخله مما يمكن أن يكون من التوراة، أمَّا أن يكون هو التوراة التي أُنزلت على موسى عليه السلام فهذا غير صحيح؛ ولهذا يغلط البعض عندما يتحدث عن كتب (العهد القديم) ويسميها التوراة، من كُتَّاب مسلمين، أو بعض العلماء المسلمين أنفسهم يقولون: التوراة، لا، هذه كتب أخرى يسمونها: (كتب العهد القديم) على أساس أن مجموعة منها هي التوراة والباقي كتب أخرى مما أنزلت على أنبياء آخرين مجموعة عدد كبير لكن كلها فيها لعبة مكشوفة، بل داخلها نصوص – فعلاً – من بعض أنبيائهم يُصرِّحون فيها وهم يخاطبونهم بأنهم يُحرِّفون الكتب، أي: شهادة من داخل الكتب

على بني إسرائيل من بعض أنبيائهم – لا أذكر بالتحديد من هو – أنهم يُحرِّفون الكتب، وأن أقلام الكَتَبَة حرَّفت كتب الله.

فيمكن في مثل هذه: ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ﴾ فيما إذا كان لا يزال هناك بقايا نسخ نادرة أو فيما هو داخل الحاصل لديهم لا يزال هناك نصوص قد تكون في قضية مُعيَّنة لا تزال قائمة فيها نصوص تشهد على كذبهم فيما يقدِّمونه، لكن ربما قد يكون الأظهر بأن التوراة بهذا الاسم إنما تطلق على كتاب الله الذي نزله دون زيادة ولا نقصان لم يعد ممكناً أن يُسمِّي كتباً كتبوها من عندهم وحَرَّفوا فيها أن يسميها التوراة!

إذاً فيما نعرف الآن لا يوجد توراة. يوجد كتب (عهد قديم) ليست هي التوراة، فيها فقرات من التوراة فقط، فربما في ذلك العصر أن يكون عند بعض منهم من التوراة، خاصة وأن اليهود الذين كانوا في الجزيرة كانوا بمنأى عن كثير من الهجوم الذي كان يحصل على بني إسرائيل هناك في بلاد الشام في (فلسطين) كان يأتي هجوم عليهم في حالات كثيرة: أحياناً من قِبل البابليين، وأحياناً من قِبل المصريين، وأحياناً من قبل الفلسطينيين الذين اسمهم الآن الفلسطينيون، ربما تعاملوا مع التوراة على هذه الطريقة: إخفاء إخفاء حتى ضاعت؛ ولهذا يُحتمَل أنه قد يكون هناك نسخ نادرة من التوراة موجودة في ذلك العصر مع اليهود الذين في الجزيرة الذين كانوا بمنأى عمَّا كان يحصل من حروب ونهب، وكان يأتي أحياناً إحراق لكتبهم على أيدي البابليين أو المصريين.

وممكن أيضاً فيما يتعلق بهذه الآية أن يكون فيها ما يفضحهم بأنه لم يعد هناك توراة ﴿قُلْ فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ أنه يوجد توراة، ولا يزال عندكم توراة، وأشياء من هذه. وهذا محتمل أيضاً فيكون الواقع أنه لا يوجد في الصورة شيء مما يبدون أنها هي نفس التوراة؛ إمَّا لأنها قد أصبحت مفقودة تماماً ويكون في هذا ما يفضحهم، أو تكون نادرة وهم متكتمون عليها تماماً ففيها فضيحة لهم بأي اعتبار من هذه الاعتبارات.

﴿فَمَنِ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ مِن بَعْدِ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ * قُلْ صَدَقَ اللَّهُ فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(آل عمران:٩٤، ٩٥) ما أخبر الله به هو الصدق هو قال: ﴿كُلُّ الطَّعَامِ كَانَ حِلاًّ لِبَنِي إِسْرائيلَ إِلاَّ مَا حَرَّمَ إِسْرائيلُ عَلَى نَفْسِهِ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ التَّوْرَاةُ﴾(آل عمران:٩٣) أليس هذا من جهة الله؟ عندما يقولون كلاماً آخر هنا أرشد إلى أن يوقفهم على ما يُبيِّن كذبهم: ﴿فَأْتُوا بِالتَّوْرَاةِ فَاتْلُوهَا إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾(آل عمران:٩٣) فإذا لم يأتوا بشيء فـ﴿قُلْ صَدَقَ اللَّهُ﴾(آل عمران:٩٥) فُضِحوا فعلاً، ثبت بأنه لو كان عندهم ما يشهد من التوراة نفسها على صحة ما قالوه هم في موضوع حول ما كان مُحرَّماً وما كان حلالاً من طعام على إسرائيل أو من بعد إسرائيل أنه ماذا؟ لجاؤوا بالتوراة (لأبدوها).

في نفس الوقت يقول لهم: ﴿فَاتَّبِعُوا مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾(آل عمران:٩٥) قد تبيَّن بأنه لا يوجد لديكم صدق، بل لديكم دعاوى لا برهان عليها من كتب الله من التوراة؛ إذاً فاتركوا هذه الطريقة والتشبث بالكذب والتشبث بالتحريف والخرافات، وعودوا إلى دين الله الذي هو ملة إبراهيم، أي: فيها استغلال أن يدعوهم، استغلال فرصة، هذه قضية عملية، ففي الوقت الذي ترى طرفاً آخر – مثلاً – بُهِتَ كما قال الله بالنسبة لخصم إبراهيم ﴿فَبُهِتَ﴾(البقرة:٢٥٨) أي: تجلى كذبه، تجلى خطؤه، تجلى ضلاله، حاول أن تستغل في نفس الوقت، أن تدعوه، قل: إذاً فارجع إلى الصواب، ارجع إلى كذا.

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦) هذا أيضاً شيء آخر فيما يتعلق بالبيت الحرام والحج تجد كيف هو؟ يتجزأ الحديث عنه داخل الآيات التي تتحدث عن بني إسرائيل وتتحدث عن الجهاد والإنفاق وعن دور هذه الأمة، تحدث عنها، أي: ذكرها كثيراً خلال آيات كثيرة تحدثت عن بني إسرائيل وعن الجهاد في (سورة البقرة) في أكثر من موضع وهنا في (سورة آل عمران).

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ﴾ قد يكون لدى اليهود دعاوى أخرى مثلاً بالنسبة لشيء يتعلق بالقدس أو بيوت عبادة في القدس أو غيره. يُبيِّن أول بيت وضع للناس ليكون قبلة للناس ليكون له الدور الذي أراد الله أن يكون له كما ذكره في أكثر من آية هو ذلك البيت الذي ببكة، وبكة كأنها اسم الموقع نفسه الذي فيه البيت الحرام، الذي فيه الكعبة، أي: وكأن بكة اسم لذلك الموقع من مكة.

﴿مُبَارَكًا وَهُدىً لِّلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦) فيه بركة، ومن بركته أنه يترك أثراً في النفس عندما تشاهد البيت الحرام، عندما يصل الواحد إلى داخل المسجد ويطل على الكعبة تجد حالة أخرى بالنسبة لنفسيتك ومشاعرك، أجواء دينية تلمس وكأنك في وضعية: قريب من الله، أي: لا يستطيع الإنسان أن يُعبِّر عن الحالة التي تعتريه أثناء

مشاهدته للكعبة ﴿وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ من خلال المهام التي لهذا البيت التي ذكرها في أكثر من آية ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ﴾ أليست هذه واحدة؟ ﴿وَأَمْنًا﴾(البقرة:١٢٥) فمجموع ما لهذا البيت من أثر تشمله كلمة ﴿وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦).

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾(آل عمران:٩٧) لاحِظ هنا الانسجام الكامل بين دور البيت الحرام ودور القرآن الكريم ودور الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) هذه كلها ﴿هُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ وفي القرآن يقول أيضاً إنه ﴿لِلنَّاسِ﴾ والناس تعني: العالمين جميعاً، البشر، كذلك يقول عن الرسول (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) إنه أرسله رحمة للعالمين.

ربما قد يكون هناك أشياء أخرى من الناحية العلمية لا نعرفها مما يمكن أن يكون للبيت أثر فيه تعطي هدىً فيه سواءً فيما يتعلق بأشياء جغرافية أو ما يتعلق بأشياء علمية أخرى قد يكون للبيت أثر فيها، مما يقال إن موضع البيت الحرام هو يمثل نصف المعمورة تماماً، النقطة التي تُعتبَر قلب المعمورة (قلب الكرة الأرضية) وبالذات قد يكون المعمورة منها، ربما لو كانت المسألة – فيما يتعلق بما يسمى: بـ(خطوط الطول والعرض) بالنسبة للكرة الأرضية – لو كانت المسألة تمت على أيدي المسلمين لربما كان موقع الكعبة موقع البيت الحرام هو نقطة البداية بدل أن يعملوا (جرينتش) هذه المنطقة حول لندن، قد تكون الكعبة نفسها هي المكان الذي يصلح أن يكون بداية لرسم خطوط الطول والعرض، لكن الآخرين هم الذين تولوا كل شيء في الأخير.

كلمة ﴿هُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٦) كما يقول الله عن القرآن الكريم ﴿هُدىً﴾ قد تكون تهدي لأشياء كثيرة كثيرة مما قد تجلى للناس ومما يمكن أن يتجلى ولو لم يكن إلاّ مثل ما يذكر البعض من المؤرخين بأنه ملحوظ بالنسبة لموقع البيت الحرام ومكة بشكل عام على الرغم من أنه يبدو مكاناً ضيقاً والجبال محيطة به وادياً ضيقاً لكن يستوعب كل من يَفِدُون إليه فليكونوا كم ما كانوا، إذاً أليس هذا فيه آية من آيات الله؟ هذه آية من آيات الله ملحوظة، لاحِظ حتى على الرغم من مضايقة السعوديين لمساحات مكة يستغلونها في بنايات شاهقة ويؤجرونها بأغلى الأثمان لا تزال مكة تتسع لملايين الناس وتتسع لهم تلك المشاعر، وترى أنه لا يزال هناك مجال!

كلمة ﴿هُدىً لِلْعَالَمِينَ﴾ تبدو مسألة واسعة، ليست فقط مثل ما يقولون: هدىً للمسلمين مثلاً أو هدى لسكان الجزيرة أو... ﴿لِلْعَالَمِينَ﴾ بهذه العبارة، بل ربما قد تتجاوز هذه العبارة عالَم البشر إلى عوالِم أخرى. ومن أغرب ما ذكره صاحب (تاريخ الحرمين) (دحلان) يحكي قصة بأن أناساً شاهدوا في وقت لم يكن يوجد عند الكعبة أناس في زمان قديم شاهدوا جَمَلاً يتجه إلى الكعبة، حاولوا أن يمنعوه فلم يمتنع بل اتجه يطوف أربعة عشر شوطاً حول الكعبة، ثم وقف عند مقام إبراهيم عند الملتزم – كما يسمونه – قريباً من الملتزم[1] ورأوه يبكي ودموعه تسيل ثم سقط ومات، وكانوا يشاهدون أيضاً (ظِبَاءً) من تلك الغزلان في وقت يكون الناس فيه قليلاً جداً تدخل إلى هناك إلى عند الكعبة وتتحيَّن هذه الغزلان فرصة إلى أن تدخل إلى عند الكعبة.

﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾(آل عمران:٩٧) مقام إبراهيم لا يزال واضحاً، وعندما يقول: ﴿فِيهِ﴾ أي: يبدو أن المكان اللائق بالنسبة لمقام إبراهيم أن يكون ملتصقاً بالكعبة – لأنهم قالوا فعلاً كانت تلك الحجر التي فيها أثر لأقدامه أنها حجر كانت "سِقَالَة"[2] كما يقولون الآن عندنا يصعد من فوقها وهو يبني؛ فظهر في هذه الحجر نفسها آثارُ أقدامه وهو يستعملها – لكن فصلوها؛ لأنه عندما يقول: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ﴾ هو يتحدث عن البيت ﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِي بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدىً لِلْعَالَمِينَ * فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٦، ٩٧) هنا ذكر فيما يتعلق بـ﴿وَمَن دَخَلَهُ كَانَ آمِنًا﴾ وفي آية أخرى أيضاً يذكر بأنه: ﴿وَإِذْ جَعَلْنَا الْبَيتَ مَثَابَةً لِلنَّاسِ وَأَمْنًا﴾(البقرة:١٢٥) بمعنى من يلوذ بالبيت، من يكون بجوار البيت يُعتبَر آمناً، لا أحد على الإطلاق يتعدى عليه مهما كان بينه وبينه مِن عداوة، تجد هذه القضية تتجلى فيها رحمة الله سبحانه وتعالى: أن يكون هناك أماكن آمنة للناس وأن تكون تلك المواقع آمنة ولا تزال في نفس الوقت يمكن أن تكون مواقع تجارية يمكن للناس أن يذهبوا إليها فيأخذوا أغراضهم ويأخذوا كل حاجياتهم، يجعل أماكن آمنة، ويجعل أزمنة آمنة، ألم يجعل الأشهر الحرم أربعة أشهر في السنة يجعلها لا يجوز القتال فيها إلاّ في ظروف أن يحصل اعتداء من طرف ممن لا يراعون أيَّ شيء

(١) الْمُلْتَزَم: هو ما بين باب الكعبة والحجر الأسود.
(٢) سِقَالَة: من اللهجة العامية، وهي التي يستخدمها البَنَّاء ليرتفع من فوقها إلى أعلى.

من حرمات الله ؟ إذاً هنا أزمنة يكون فيها أمن، وأماكن يكون فيها أمن ؛ لأن البشر بحاجة إلى هذا بحيث لا يكون بينهم صراع لا ينتهي ولا له حد لا باعتبار زمن ولا باعتبار موقع، بل يكون هناك بالنسبة للأمكنة وبالنسبة للأزمنة أن يجعلها أزمنة آمنة ومكاناً آمناً.

﴿وَلِلَّهِ عَلَى النَّاسِ حِجُّ الْبَيْتِ مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ يجعله حقاً له سبحانه وتعالى، ولله على الناس حج هذا البيت، وهو جعل هذا البيت مباركاً وهدى للعالمين ومثابة للناس وأمناً، حج البيت الحج المعروف ثم أيضاً العمرة التي تُعتبَر مفتوحة في باقي السنة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾(آل عمران:٩٧) عندما يكون مستطيعاً للحج إلى البيت، أذكر أن بعض الأئمة يقول: بأنه حتى إذا لم يكن الإنسان مستطيعاً أن يحج وقد يكون مستطيعاً أن يعتمر فليعتمر؛ لأنه ماذا؟ لا يزال يصدق عليه (حَج البيت) أو (حِج البيت) بالمعنى المصدري، أي: قصْد البيت لكن هناك الحج الرسمي الذي هو ماذا؟ أشهر معلومات وأيضاً أيام معدودات هذه الفريضة كحج، لكن أنت قد لا تستطيع أن تحج باعتبار ظروفك المادية، فإنه إذا أتيح لك فرصة أن تعتمر فلتعتمر، العبارة هنا فيها عموم أو شمول أكثر من كلمة (الحج) في آيات أخرى: ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾(البقرة:١٩٧) أليست هكذا؟ الحج قد أصبحت كلمة (حج) أي: فريضة مُعيَّنة معروفة مناسك مُعيَّنة ومشاعر مُعيَّنة هذا يقال له ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾ هذا فريضة.

كلمة ﴿حِجُّ الْبَيْتِ﴾ قد تكون أوسع من كلمة ﴿الْحَجُّ﴾ في الآيات الأخرى؛ ولهذا قلت: إنه فيما أعرف أن بعض الأئمة كان يقول: فليعتمر إذا لم يكن مستطيعاً – مثلاً – أن يحج وتهيأ له أن يعتمر فليعتمر، ومتى ما استطاع بما تعنيه كلمة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلاً﴾ فليحج ولو كان قد اعتمر، كلمة ﴿مَنِ اسْتَطَاعَ﴾ هي دون كلمة (من أطاق) أي: يتمكن أن يحج باستطاعة، أي: بوسع، ممكن أن الإنسان قد يحج لكن بصعوبة بالغة فما يُعتبَر واجباً بالنسبة له هو: عندما يكون مستطيعاً، كلمة (مستطيع) هي دون كلمة (يطيق) أي: ممكن أن تحج بوسع، أي: ليس فيه إرهاق لك، إرهاق شديد من الناحية المادية والبدنية.

يوجد تأكيد كبير بالنسبة للحج من رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وترغيب كبير في موضوع الحج وفي وصية الإمام علي يوصي أولاده بألاّ يُخلوا البيت الحرام، ألاّ يَخلو منهم بـ(النسبة لذريته) وجاء فيها بعبارة (فإنه إن تُرِكَ لم تُنَاظَرُوا) أي: كأن وراءها عقوبة.

﴿وَمَن كَفَرَ﴾ رفض، مع أن الله سبحانه وتعالى ما جعلها فريضة – مثلاً – فوق ما يستطيع الإنسان، يُعتبَر رافضاً ﴿فَإِنَّ اللَّهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧) هو غني ليس بحاجة إلى أحد، كلمة ﴿غَنِيٌّ﴾ هي اسم من أسماء الله سبحانه وتعالى، وتأتي في القرآن كثيراً في مقامات كثيرة وهي أيضاً ينبني عليها أشياء كثيرة، أي: هي في الأخير توجد خوفاً عند الناس، أن يعرف الناس أنه إذا لم يستجيبوا فالله هو غني عنهم ممكن أن يهيئ غيرهم، أي: مظاهرها كثيرة مثلما يقول: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ﴾(محمد:٣٨) ﴿مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ﴾(المائدة:٥٤) هو غني بمعنى أنها فرصة للناس هم، ليس معناه بأنهم سيلبُّون حاجة لله سبحانه وتعالى هو محتاج إليها، أبداً، إنَّ كل هداه لهم، وكله فضل لهم، وكله خير لهم، أمَّا هو فهو غني، هذه نفسها مما تجعل الإنسان دائم الخوف من الله والخضوع لله مهما كان ليعرف بأنه ليس في موقع يمكن أن يكون له منّة على الله على الإطلاق، هو غني عنه، بل تَعتبِر بأنها منّة من الله عليك أن هداك ﴿بَلِ اللَّهُ يَمُنُّ عَلَيْكُمْ أَنْ هَدَاكُمْ لِلإِيمَانِ﴾(الحجرات:١٧).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران:٩٨) لاحظ هنا الكلام عن بني إسرائيل قبل الكلام عن الحج وبعده، قبل الكلام عن البيت وبعده، وهنا توثيق للموقع، أليس توثيقاً هنا؟ أي: هذه تُشعِر مثلما كان هناك توثيق للزمن: زمن فريضة الحج ﴿الْحَجُّ أَشْهُرٌ مَعْلُومَاتٌ﴾(البقرة:١٩٧) ويذكر هناك أياماً معدودات ﴿وَاذْكُرُوا اللَّهَ فِي أَيَّامٍ مَعْدُودَاتٍ فَمَن تَعَجَّلَ فِي يَوْمَيْنِ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ وَمَن تَأَخَّرَ فَلاَ إِثْمَ عَلَيْهِ﴾(البقرة:٢٠٣) وهنا توثيق للموقع نفسه، أي: لو جاء شيء مثلاً يضرب هذا البيت القائم يمكن إعادة بنائه لكن في نفس الموقع لا تُقبَل أيُّ اقتراحات أخرى بأنه ممكن أن نعطي لكل شعب بيتاً مثلما قالوا: إنها فكرة حصلت عند (أبرهة) يريد أن يعمل للعرب في صنعاء بيتاً أو يريد أن يحجوا إلى الكنيسة. وفي أيام بني أمية في أيام عبد الملك بن مروان حاول أن يحج الناس إلى الصخرة التي هناك، وقالوا عمل عليها قبَّة، وقال: يحجون هناك إلى الشام.

ومعنى هذا بأن هذا الموقع وهذا البيت (الحج والبيت) هو محط مؤامرة من قِبَل بني إسرائيل وفعلاً لهم موقف منها منذ زمن قديم وما زالوا مستضعفين ما بالك الآن وهم في زمن قوة أنه مما صرفهم عن البيت عداوتهم لإسماعيل وبني إسماعيل، كارهين لذلك الموقع، كارهين له لعدة اعتبارات وبالطبع عندما يكونون مستقوين عندما يكونون يرون أنفسهم أقوياء ونافذين فإنهم يتآمرون والمؤامرة قائمة فعلاً، مؤامرة بني إسرائيل لا تكون فقط بشكل تدمير موقع فقط، بل أيضاً يحاولون أن يكون بالشكل الذي يصرف الناس.

هنا جاء توثيق للزمن وتوثيق للمكان، وفريضة أن يحج الناس إليه في أيِّ ظرفٍ كان أن يحجوا إليه، وأن هذا البيت والحج إليه واجتماع المسلمين حوله يمثل قوة بالنسبة لهم، يمثل مَعْلماً من معالم القوة بالنسبة للمسلمين، فعندما يتجه بنو إسرائيل إلى المؤامرة على الحج على البيت لعدة اعتبارات لديهم: كراهية لهذا البيت وكراهية لمن هم مرتبطون بهذا البيت من بني إسماعيل ولإسماعيل، وكراهية لأثره الهام بالنسبة للمسلمين أنه يُعتبَر معلماً يبرهن على أن هذه لا تزال أمة واحدة.

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران:٩٨) وقد ذكر سابقاً كيف كانوا يكفرون بآيات الله ويكفرون بآيات يعلمونها وآيات يشاهدونها، وكانت قصتهم عندما كفروا بآيات جاءت على يد عيسى بن مريم عليه السلام قضية رهيبة جداً وغريبة جداً عندما يصنع من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وهم يشاهدونه، يشاهدون تلك الآيات كلها: وهو يحيي الموتى، ويبرئ الأكمه والأبرص بإذن الله، وينبئهم بما يأكلون وما يدخرون في بيوتهم، ويكفرون بهذا، قال هناك: ﴿وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾ ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنْتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(آل عمران:٧٠) وفي مقامات يقول: ﴿وَأَنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾(آل عمران:٧١).

هذا يُبيِّن أهمية ما يسمى بمعالم تاريخية أو تراث مُعيَّن، هنا مقام إبراهيم، أليس مقام إبراهيم يعني حَجَراً كان إبراهيم يصعد من فوقها وهو يبني الكعبة؟ أثر هذا تاريخي هام له أثره من الناحية التوثيقية ومن الناحية النفسية، عندما تعرف بأنه لا يزال هناك أثر من آثار إبراهيم الذي رفع قواعد هذا البيت العظيم، وأثر لوحدة الدِّين؛ ولهذا قال الله في آية أخرى: ﴿وَاتَّخِذُوا مِن مَقَامِ إِبْرَاهِيمَ مُصَلّىً﴾(البقرة:١٢٥) يحاول الناس أن يُصَلُّوا عنده ليتذكروا.

هنا تلحظ أنه: لماذا الآخرون يحاولون أن يضربوا كل الآثار والمعالم الإسلامية ويُغيِّروا آثارها في نفس الوقت الذي يحاولون فيه أن يبقوا آثارهم على ما هي عليه، تجد في مكة وفي المدينة كثيراً من الآثار غيَّروها، هذه هي نفسها من الأشياء الرئيسية التي يتجه إليها اليهود، تغيير المعالِم، أليسوا في فلسطين يصيح الفلسطينيون: أن اليهود يتجهون إلى تهويد القدس؟ تهويد القدس، أي: ليس فقط تهويد نفوس بل تهويد المنطقة: معالِم مُعيَّنة يهودية ويطمس معالم إسلامية أو عربية.

فهي آية من آيات الله التي يعرفها بنو إسرائيل لكنهم يكفرون بآيات الله ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾(آل عمران:٩٨) ألم يقل هناك: ﴿فِيهِ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَقَامُ إِبْرَاهِيمَ﴾(آل عمران:٩٧)؟ لكن دائماً هم هكذا، الكثير منهم موطنون أنفسهم على أن يكفروا بآيات الله يشاهدونها أو يعلمونها وينطلقون على ما يخططون هم من جهة أنفسهم وعلى أهوائهم ﴿وَاللَّهُ شَهِيدٌ عَلَى مَا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران:٩٨) هذه توحي بأن لديهم نظرة سلبية نظرة عدائية بالنسبة للبيت الحرام وهذه الآيات البينات التي فيه وللحج أنهم بالشكل الذي طبيعي أن يحصل لديهم مؤامرة، لكن الله شهيد على ما يعملونه، هذه فيها تهديد لهم مهما تآمروا سيجعل دائرة السوء عليهم، يجعل مكرهم كما قال في آية أخرى: ﴿وَلاَ يَحِيقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ﴾(فاطر:٤٣).

﴿قُلْ يَا أَهْلَ الْكِتَابِ لِمَ تَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ مَنْ آمَنَ تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(آل عمران:٩٩) تبغونها، أي: تطلبون أنتم، كلمة (بغى) أي: هو يطلب الشيء، يبغيه: يطلبه، يعمل ليجعلها عوجاً، وليس فقط بأنه لا شأن له (من أراد أن يؤمن فليؤمن، والذي لا يريد فعلى كيفه) ليست بهذا الشكل. ﴿تَبْغُونَهَا﴾ أي: تبغون سبيل الله عوجاً أن تكون العوج بدل سبيله المستقيم.

﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾(آل عمران:٩٩) وأنتم مَن كان يجب أن تؤمنوا بالله وتسيروا على صراطه المستقيم، وأن تدعوا إلى سبيله بدل أن تصدوا عنها؛ لأنكم ممن أوكِل إليهم أن يكونوا شهداء، يعني ماذا؟ أن يعملوا ليتجلى من خلال سلوكياتهم ومواقفهم عظمة دين الله. هنا يذكر بالشكل الذي يدل على أنه فيما يعود إلى مسيرتهم بشكل عام من قديم الزمان هم يصدون عن سبيل الله من آمن ويبغونها عوجاً وهم في نفس الوقت شهداء، أي: من مهمتهم عندما كانوا ورثة للكتاب وكانوا هُمْ يمثلون الدائرة التي تُعتبَر شهداء على الناس: أن يحرصوا هم على الإيمان بالله وبرسله وبآياته ويدعوا إلى دينه ويمثلوا دينه في معاملاتهم ومواقفهم وسلوكهم ليكونوا شهداء على الناس.

﴿وَمَا اللَّهُ بِغَافِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ﴾(آل عمران:٩٩) فالذي كان يظهر في أيام رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) من صد عن سبيل الله ومحاولة أن تكون الطرق التي يسير الناس عليها عوجاء إنما هو امتداد لِمَا هو سُنة لديهم على طول تاريخهم.

إذاً بعد أن ذكر بأنهم هكذا: يكفرون بآيات الله، وأنهم يصدون عن سبيل الله من آمن يبغونها عوجاً، اتجه لتحذير المسلمين منهم ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾(آل عمران:١٠٠) هنا قال تصدون عن سبيل الله من آمن تبغونها عوجاً، ينتج عنها هذه الحالة: يحاولون في المؤمنين أن يردوهم كافرين؛ لأن السبيل المستقيم والصراط المستقيم هو الإيمان، أن يبغوه عوجاً معناه ماذا؟ أن يردوا الناس كافرين.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ * وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(آل عمران:١٠٠،١٠١) هذه الآية تعني أن آيات الله ﴿وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ﴾ فيها ما يجعلكم بعيدين كل البعد عن أن تكفروا، تُعتبَر حالة غريبة وحالة سيئة جداً أن يحصل من جانبكم كفر وأنتم تتلى عليكم آيات الله، ليس معنى الآية بأن هذا لا يحصل منكم، إنما فيما لو حصل منكم طاعة لهم وهم هكذا: يريدون أن يردوكم بعد إيمانكم كافرين، فإن كفركم وأنتم تتلى عليكم آيات الله وفيكم رسوله تُعتبَر قضية كبيرة جداً وقضية غريبة جداً؛ لأن في آيات الله ما يجعل الإنسان بعيداً كل البعد عن أن يكفر عن أن يتأثر بأي تضليل أو خداع من جانب بني إسرائيل.

﴿وَفِيكُمْ رَسُولُهُ﴾ هذه الآية مما تشهد بعظمة رسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وذكائه وفطنته وفهمه ومعرفته لليهود، ومعرفته للناس، ومعرفته لتضليلهم وخداعهم كيف يكون، وقدرته على أن يُبيِّن للناس ما يجعلهم بعيدين عن الكفر، القضية هذه نفسها شاهدة بأن الشيئين لا بُد منهما وفق السُّنة الإلهية: كتاب الله الذي تمثل آياته، ورسوله كعلم (كتاب وعلم) فإن كان رسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لا يزال حياً وإلاّ فورثة الكتاب من بعده.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾(آل عمران:١٠١) بعد أن ذكر هناك بأن هذه الفئة (بني إسرائيل) هكذا هم يسعون ﴿تَبْغُونَهَا عِوَجًا﴾(آل عمران:٩٩) أي: هو يفتش ويبحث ويعمل، يطلب كيف يجعل السبل عوجاء، ومعناها كيف يجعل المؤمنين كافرين، هذه تحتها قائمة من المؤامرات والأعمال الرهيبة عندما يكونون على هذا النحو: هم يبحثون ويطلبون أن تكون السبل عوجاء، ومعنى أن تكون السبل عوجاء أن يجعلوا الناس هم عُوجاً؛ لأنه في الأخير مسألة صراط، أليس الله يذكر هناك بأنه صراط ناس؟ الصراط المستقيم يمثل عليه استقامة ناس يتجلى في استقامة ناس، خط يستقيم عليه السائرون عليه؛ سيجعل الناس هم يسيرون في الطريق العوجاء يكونون معوجين هم، أليس الكفر يُعتبَر حالة اعوجاج بالنسبة للإيمان؟ إذاً فمعناه أنهم عندما تكون القضية مرغوبة لديهم ومطلوبة لديهم ويتآمرون مؤامرات كثيرة من أجل أن يصلوا بالناس إلى هذه الحالة: يطوعونهم ليجعلوهم كافرين، أنه يجب على الناس أن يبحثوا عن أيِّ شيء يلتجئون إليه ولن يجدوا إلاّ الله، أن يبحثوا عمَّن يلتجئون إليه وهو الله سبحانه وتعالى يعتصمون به، كلمة ﴿يَعْتَصِم﴾ هي توحي بخطورة في نفسها، أنتم أمام حالة خطيرة لا ينجيكم منها إلاّ الاعتصام بالله، والاعتصام بالله: العودة إليه والاهتداء بهديه هذا الذي يعصم الناس من هذه الحالة الخطيرة ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾.

وأن الاعتصام اعتصام عملي، أي: التجاء إلى الله ليهدينا إلى الصراط المستقيم الذي من خلاله نثبُت على إيماننا ونستقيم ونعرف كيف نواجه أولئك الذين يبغوننا أن نعوجّ، يبغون المسيرة أن تكون عوجاء وأن نكون عوجاً. فكلمة ﴿فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ﴾ هي توحي بماذا؟ توحي بحركة، عمل، ليس الالتجاء هنا فقط يتمثل أو يتجسد في أن تدعو (اللهم دمرهم، اللهم اهلكهم فقط) لا، الاعتصام بالله يتمثل في ماذا؟ في الاهتداء إلى صراط مستقيم ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللَّهِ فَقَدْ هُدِيَ﴾ أي: أن المسألة تُقدَّم من البداية وكأنك أنت تستشعر الخطورة وتبحث عن جهة ترجع إليها توجهك كيف تعمل وليس أن توجهها أنت لتعمل، يتجه إلى الدعاء أليس معنى هذا أنه ينطلق يقول للباري (أنت..) يوجه الله هو الذي يعمل؟! لا، إنك أنت تعتصم بالله تتوجه إليه لتمتنع به وليوجهك هو كيف تعمل لتهتدي إلى الصراط المستقيم.

ودائماً كلمة (هدى) وكلمة (ضلال) كلها توحي بمسيرة، نفس هاتان الكلمتان اللتان هما في القرآن الكريم واسعة الاستعمال، هدى وضلال معناها: طريق، مسيرة، حركة، لا تتصور أن الأمة هكذا راكدة أو أن الحياة

راكدة ﴿يَا أَيُّهَا الإِنسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحًا فَمُلاَقِيهِ﴾(الانشقاق:٦) الحياة هي حركة ومسيرة فإمَّا أن تصعد إلى الصراط المستقيم وتمشي عليه فيقال هُديتَ إلى كذا، عندما يقال: هُديتَ، أي: أنك أنت في طريق سائر يوجهونك (تعال من هنا) لا يقال في اللغة: هدى للقاعد، إنما السائر – مثلاً – مسافر يسأل من أين؟ أنا أريد شخصاً أن يهديني إلى طريق كذا، أليس موسى قال: ﴿عَسَى رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾(القصص:٢٢)؟ لا يُقال للقاعد اهتدى أو هداه إلى كذا أبداً، بل يقال لمن هو في مسيره لمن هو سائر.

﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾ ليعمل الطريقة التي تنجيه من كل مؤامراتهم وفي نفس الوقت يتفوق وليس فقط بشكل منعة بأنهم لن يصلوا إليه بل يستطيع هو مثلما جاء في مسيرة الآيات إلى آخرها أن يتغلب عليهم، أليس هذا الذي حصل في بداية الإسلام؟ ألم يُضربوا وينتهوا في بداية الإسلام؟ فعلاً. فيحصل بهذا الشيء (الاعتصام بالله) منعة من تضليلهم الثقافي من محاولات احتلالهم للأوطان من محاربتهم للدِّين من كل ما تعنيه كلمة عِوَج، وهم عُوج في كل شيء يقدِّمون ثقافة عوجاء وإعلام أعوج وكل مؤامراتهم كلها بالنسبة للناس اعوجاج.

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(آل عمران:١٠٢) أليست جاءت أيضاً أثناء الحديث عن بني إسرائيل أنهم ﴿إِن تُطِيعُوا فَرِيقًا مِّنَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ﴾(آل عمران:١٠٠) لو لم يكن إلاّ فريق واحد؟ فما بالك إذا قد أصبحت دولاً متآمرة وليس فقط فريقاً واحداً؟ هذا معناه فريق واحد يشكل خطورة كبيرة جداً فما بالك وقد أصبحت دولاً تتآمر وليس فقط فريقاً واحداً؟ فهنا تنبيه للمؤمنين تذكير لهم بأنهم يجب عليهم أن يكونوا حذرين فيتقوا الله حق تقاته ويكونوا على حذر من بني إسرائيل من أهل الكتاب.

﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾(آل عمران:١٠٢) معناها ماذا؟ حالة حذر مستمرة لا تعتبرها حتى مرحلة مُعيَّنة فقط، لاحِظ الآن نحن ألسنا نبدو في الصورة وكأننا بدأنا نتحرك من سنتين مثلاً في موضوع الحديث عن بني إسرائيل؟ هم من قبلنا في العمل، عملهم منذ زمن قديم. والذين مِن قبْلنا عندما لم يتقوا الله حق تقاته لاحِظ كيف كان الأثر السيئ لبني إسرائيل، كيف كان الأثر السيئ لأهل الكتاب على هذه الأمة عندما لم يتقِ الله الذين يحكمون هذه الأمة جيلاً بعد جيل، لاحِظ كيف وصلت حالة المسلمين اليوم إلى أسوأ ما يمكن أن تتصوره من حالة سيئة لأمة.

جاءت تفسيرات لمثل هذه الآية ﴿اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ بمعنى (أن يطاع فلا يُعصَى وأن يُشكَر فلا يُكفَر) لا بأس هذا هو الشيء المطلوب من الإنسان بشكل عام، لكن الآيات في إطار قضية هامة قضية مُعيَّنة؛ ولهذا قلنا إنه حتى من الناحية البلاغية غير متناسب ﴿وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ بعد كلمة ﴿اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ كيف يوجِّه – مثلاً – مؤمنين راقين في إيمانهم إلى أعلى درجات التقوى، ثم يقول: ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ أي: تحافظ على أقل تقدير ألاّ تعود كافراً، انتبهوا انتبهوا هؤلاء قد يردونكم كافرين فاتقوا الله، كونوا حذرين الحذر التام وإلاّ فقد يردونكم كافرين بعد إيمانكم.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ﴾(آل عمران:١٠٣) لاحِظ عندما قال هناك سبحانه وتعالى ﴿وَمَن يَعْتَصِم بِاللّهِ فَقَدْ هُدِيَ إِلَى صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ﴾(آل عمران:١٠١) أليس هنا اتجه بتوجيهات عملية؟ توجيهات عملية، تحت كلمة ﴿اتَّقُوا اللّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ﴾ ينفخ فيك روحاً عملية، أليست هي هذه ﴿وَلاَ تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾؟ ثم يوجِّه هنا توجيهات كلها عملية ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣) اعتصموا هي نفس المعنى السابق: اللياذ، والالتجاء لتحصل المنعة تحصل منعة من شر هؤلاء وليستطيع الناس أن يكونوا متغلبين عليهم، اعتصموا: لوذوا بحبل الله واستمسكوا به جميعاً السبب الذي جعله سبباً لكم تستمسكون به ليمثل لكم ماذا؟ عصمة، أي: منعة من شر هؤلاء ومن خبثهم ومؤامراتهم ﴿جَمِيعًا﴾ إذا بقي طرف لا يعتصم في الأخير يشتغل هو ضد الطرف المعتصم، اليهود خبثاء بشكل رهيب يُشغّلون آخرين من داخل الأمة.

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللّهِ جَمِيعًا وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾(آل عمران:١٠٣) هذه الآية نفسها وهذا الجزء من الآية فيه ثلاث عبارات كلها تعني ماذا؟ وحدة كلمة ووحدة اعتصام، الذي تعنيه كلمة ﴿وَاعْتَصِمُوا﴾ والذي تعنيه كلمة ﴿جَمِيعًا﴾ والنهي عن التفرق ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾.

تجد الآن كيف موضوع: ﴿وَلاَ تَفَرَّقُوا﴾ قضية هامة جداً، فمثلاً المناهج عندما اتجهوا لمحاولة تغيير المناهج وبدؤوا يُغيِّرون المناهج، أليس موقفاً يتطلب من الناس أن يكونوا جميعاً في مواجهته؟ موقفاً يتطلب موقفاً

جماعياً منهم، تجدها حالة في الأخير قضية تتناول المدارس في كل مكان في كل بلاد، ما الذي يمكن أن يوقف هذه؟ موقف جماعي، قد يأتي أهل بلد مُعيَّن أو أهل قرية مُعيَّنة يقولون: لا، تجد منهجهم شغالاً هناك في مناطق أخرى.

هكذا بشكل عام قضية وحدة المؤمنين قضية هي الأساس الذي يتمكنون به فعلاً من أن يكونوا معتصمين بحبل الله، والاعتصام بحبل الله جميعاً معناه ماذا؟ وحدة دينية قِوامها الاعتصام بحبله، ليس معناه وحدة أيَّ وحدة، هذه هي الوحدة التي تمثل منجى وتمثل قوة بالنسبة للمؤمنين أن يكونوا ماذا؟ مجتمعين على الاعتصام بحبله وألاّ يتفرقوا ويفارقوا – على الإطلاق – هذا الأمر الإلهي (الاعتصام بحبله).

الاعتصام بحبل الله قضية عملية، عملية، أي: حتى لو تفترض أنه حبل حقيقي مدلّى ألن يكون معناه أن كل واحد يمسكه بيده؟ حبل: معناه أنه قد جعل سبحانه وتعالى للناس سبباً يرفعهم يرتفعون به عن أن ينال منهم أهل الكتاب فيردوهم بعد إيمانهم كافرين ويضلونهم سواء السبيل، كم تحدث عنهم في آيات أخرى، بأن الذي يريدون أن يكون الناس عليه: كافرين ضالين لا ينالون أيَّ خير، من أظهر ما تعنيه كلمة (حبل) هو: القرآن الكريم بشكل أوضح من الآية السابقة التي قال فيها: ﴿**وَكَيْفَ تَكْفُرُونَ وَأَنتُمْ تُتْلَى عَلَيْكُمْ آيَاتُ اللَّهِ وَفِيكُمْ رَسُولُهُ**﴾(آل عمران:١٠١) ألا يعني أن هنا حبلاً (سبب) يرفعكم عن أن تكونوا كافرين؟ فحبل الله هو السبب الذي جعله الله للمؤمنين يعتصمون به، تراه في الأخير يتمثل في ماذا؟ يتمثل في توجيهات، يتمثل في طريق يسير الناس عليه، يتمثل في الأخير في هدى، ليس معناه حبلاً حقيقياً بالمعنى المحسوس، لكن كلمة (حبل) تعني فيما تعنيه ماذا؟ انتشال مِن حالة خطيرة يريدون أن يوقعوكم فيها، والوقوع معناه ماذا؟ سقوط إلى تحت (إلى الحضيض) فيمثل وحدة التوجه، وحدة الطريقة، وحدة الموقف، وحدة الأمة.

أليست كلمة (حبل) من المفردات التي لا يمكن أن تتصور فيها أكثر من شيء واحد؟ حبل، أي: أوضح عبارة تعطيك التعبير عن وحدة المنهج والطريق والموقف والكلمة، وأن الله هو يدلي حبلاً واحداً لا يوجد هناك حبال متعددة وكل واحد يمشي على مزاجه ويمسك بالحبل الذي يعجبه، ليست هكذا، هو وضع حبلاً واحداً هو دلَّى لعباده حبلاً واحداً يتمسكون به.

إذاً فالوحدة هنا معناها: وحدة دينية، وحدة تقوم على أساس الاعتصام بحبل الله، أليست تعني في الأخير وحدة عملية؟ إذاً فالقضية هامة؛ لأن الكثير يفهم أن موضوع الوحدة أن نكون متجمعين هكذا على شيء، قد أصبحنا نصلي جميعاً في مسجد، إذا وجَّه أحد – مثلاً – توجيهاً وغَضِبَ البعض منه، فإذا به يريد أن يخرج؛ قال آخرون: (فرَّقتم كلمتنا) لا، إن الذي يجب أن تجتمع عليه كلمتنا هو الاعتصام بحبل الله، فإذا كان هناك توجيه هو توجيه بهذا تذكير بهذا: بحبل الله الذي يجب أن نعتصم به، الذي يتجلى في الأخير بشكل مواقف اتجاهات ومواقف، موقف واحد يسير الناس عليه، فغضب آخرون هؤلاء اعتبرْهم لا يريدون أن يتمسكوا بالحبل، لا تأتِ وتترك الحبل وتتبعهم أو تترك تذكير الناس بأن يعتصموا بما هو اعتصام بحبل الله في الواقع لأجل لا يخرج عليك من المسجد صفان أو ثلاثة.

فالوحدة في الإسلام هي مبدأ وقاعدة هامة، ويجب أن تعرف أن كل ما هو هام وكل شيء في القرآن هو يرسم طريقته كاملة، ليست كلمة (وحدة) كلمة عائمة لا ندري كيف يريد على أيِّ أساس تكون، رسمها رسماً كاملاً، ما هي الوحدة الدِّينية، وكيف يجب أن يكون المسلمون ليكونوا متوحدين هذه الوحدة الدِّينية المطلوبة؟ أي: ليست قضية متروكة للأمزجة، متروكة للأطروحات المتعددة، أن يقول: نتوحد من منطلق (قومي) هذا عنوان، أو نتوحد من منطلق (وطني) أو نتوحد من منطلق (قَبَلي) أو بأيِّ عبارات من هذه، لا، لا يمكن ولا يتم ولا تكون مجدية أيُّ وِحدة من هذه إلاّ إذا كانت وحدة قائمة على أساس الاعتصام بحبل الله.

أليست الآية هنا موجهة للمؤمنين، موجَّهة للمسلمين بشكل عام؟ عندما تجد في الأخير دائرة المسلمين اتسعت هل يمكن أن تقول بأن هذه الآية أصبح العمل بها غير ممكن؟ قال: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا**﴾(آل عمران:١٠٣) لكن لاحظنا إلاّ وقد صارت المسألة غير ممكنة لم يعد ممكناً بأنك تأتي تجمع السُّنية والشيعة وطوائف السُّنة وطوائف الشيعة وتجمع المسلمين ليكونوا متوحدين، مُفرَّقين الآن ممزقين ومفرقين كطوائف وليس فقط مفرقين في بلدان متعددة بل كطوائف كأحزاب.

في السُّنة الإلهية الله قال في كتابه الكريم: ﴿**وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا**﴾(الكهف:١) لا يوجد شيء اصطدم به فعطله على الإطلاق، الطريقة لا تزال قائمة، أي: لو يقول أحد الآن: (حقيقة أن المسلمين لو توحدوا، العرب لو توحدوا،

ولو، ولو...) ومن هذه الأشياء، لكن أليست عند الكل تقريباً شِبه مستحيلة؟ شِبه مستحيلة. إذاً فهل انتهت القضية؟ لأن هذه أتت ضمن توجيه إلهي فيما يُبعِد الناس عن خطورة وشرور بني إسرائيل ومؤامراتهم التي منها أن يردوا الناس كافرين، وقضية كافرين خطيرة جداً، إذا أراد الواحد منا أن يعرف ماذا يريد لنا بنو إسرائيل عندما يقول الله: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾(آل عمران:١٠٠) تصفح في القرآن الكافرين تجد الكافرين كيف قُدِّموا في القرآن أسوأ حالة! الكافرين قدَّمهم في القرآن ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا فَتَعْسًا لَهُمْ وَأَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾(محمد:٨) ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوىً لَهُمْ﴾(محمد:١٢) ﴿إِنَّ اللَّهَ لَعَنَ الْكَافِرِينَ﴾(الأحزاب:٦٤) وآيات من هذا القبيل.

لهذا تجد صورة الكافرين مخيفة جداً؛ لتعرف بأن من يسعى ويتحرك ويتآمر ليردك كافراً معناه أنه يريد أن يُوقِعك في أسوأ حالة يمكن أن تتصورها، ليست قضية سهلة، إذاً فما يُقدَّم من توجيهات في إطار إبعاد الناس عن هذه تُعتبَر كلها نقاط هامة وكلها قابلة التنفيذ، ليس فيها شيء في الأخير تعتبره أصبح مستحيلاً على الإطلاق، لا يوجد فيها ما يمكن أن نقول: (حقيقة توجيه قيم، لكن لم يعد ممكناً) ليس في كتاب الله شيء من هذه، إلاّ أن تكون أنت ليس لديك توجُّه، فهناك قاعدة أخرى: ﴿وَإِن تَتَوَلَّوا يَسْتَبْدِلْ﴾(محمد:٣٨).

إذاً ليس هناك – أبداً – ما يجعل كتاب الله يصطدم بشيء فيعوج ﴿وَلَمْ يَجْعَل لَهُ عِوَجَا﴾ إذا وجدتَ أن المسلمين كلهم ليسوا متوحدين، فليس المشروع هنا أن تحاول أن تجمع السُّنة والشيعة وتوحد العرب، حاوَلَ (جمال الدِّين الأفغاني) حاوَلَ (الخميني) حاوَلَ (محمد عبده) حاول (البناء) حاول كثيرون فلم تتم المسألة.

الله رسم طريقة عندما يقول للناس: توحدوا، هذا شيء، لكن وممكن أن يكون هناك فئة تتوحد وتنطلق على أساس كتابه وتمثل دائرة، هذه الدائرة قابلة أن تتوسع هي، تجد هذه هي القاعدة التي جعلها الله سبحانه وتعالى من بداية وقوع اختلاف بين البشر ﴿كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾(البقرة:٢١٣) إن الله يضع منهجاً كاملاً للتوحد، لا يُقدِّم فكرة مؤتمرات أو فكرة تلفيقات بين طوائف، هو يضع منهجاً كاملاً يجتمع الناس حوله وتتوسع دائرتهم ويكون بالشكل الذي يكون الآخرون أقرب إلى ماذا؟ إلى الاجتماع حوله وإلى الالتفاف حوله بأفضل من فكرة تلفيقات من هنا وهنا، هذه لا تتم عليها وحدة بما تعنيه الكلمة أبداً، بل تكون وحدة هشة.

الله ينزل كتاباً ويصطفي عَلَماً، أي هنا: بدل أن نقول مؤتمرات ونحاول أن يتجمع السُّنة والشيعة على أساس: أنتم يا سُنة اسكتوا من كذا، والشيعة يسكتون من كذا، ونحاول جميعاً أن نكون كذا كذا، أنت هنا ستقدِّم شيئاً لا يرضى هذا عنه بالكامل، ولا يرضى عنه الطرف الآخر بالكامل. قضية أكيدة أنه في موضوع مثلاً تجميع سُنة وشيعة وعلى أساس أن كل طرف يُقدِّم تنازلات من عنده إنما يكون ناتجاً ليس بالشكل الذي يرضى عنه الشيعي كاملاً ولا بالشكل الذي يرضى عنه السُّني كاملاً؛ لأن هواية الشيعي أن يكون الناس شيعة جميعاً وعلى رؤيته هو، وما يهواه السُّني أن يكون الناس كلهم سُنية على وجهته ومذهبه هو، إذاً سيكون تفاعل الطرفين مع ما قدَّم تفاعلاً غير حقيقي، أي: متدنٍ؛ لأنه ليس الشيء الذي هم منشدّون إليه هو دون ما يريدون.

يأتي بديلاً عن كل التلفيقات منهج إلهي (كتاب) أليس هذا هو فوق التلفيقات؟ فوق، والأطراف كلها على سواء مُلزَمة بأن تؤمن به وتتبعه، هنا تكون – فعلاً – أقرب إلى الالتقاء؛ لأن السُّني سيلتقيك هنا على أساس أنه مؤمن بالكتاب وليس مؤمناً بك أنت كشيعي، الشيعي سيؤمن بالكتاب ويتبعه وليس على أساس أنه استجاب للسني، كلهم يتبعون قضية هي من فوقهم، هي فوقهم وهم مُلزمون بها جميعاً، وليست من عند طرف منهم، الشيعي يدعو إلى أن يكونوا شيعة، والسني يدعو إلى أن يكونوا سنة، أبداً ﴿فَبَعَثَ اللّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ وَأَنزَلَ مَعَهُمُ الْكِتَابَ﴾(البقرة:٢١٣) إذاً أليس هنا قدَّم المنهج، والعَلَم: القيادة؟ مشروع متكامل؛ لأن من مقومات الوحدة بشكل صحيح هو ماذا؟ (منهج وقيادة) هل يمكن أن نتصور أمة يقال توحدت ولا يكون توحدها على أساس (منهج وقيادة)؟ معروف حتى قَبَلياً يكتبون (قاعدة) يعني ماذا؟ منهج، أليس كذلك؟ ويختارون شخصاً كبيراً لهم معناه ماذا؟ قيادة.

الله يضع المنهج يختار هو المنهج ويختار هو القيادة التي ماذا؟ تتحرك على أساس ذلك المنهج وتهدي بذلك المنهج ويُلزِم الكل بأن يسيروا على هذا المنهج ويتبعوا تلك القيادة، هنا تتم المسألة تبدأ بدائرة وقابلة للتوسع وهو أفضل مشروع وحدوي فعلاً، أفضل مشروع وأرقى مشروع وحدوي، وقلنا في كلام سابق بأن هذه الطريقة هي أضمن لوحدة المسلمين على اختلاف طوائفهم؛ لأن المسلمين إذا كان الآن مجمل ما لديهم يتعصبون

لمسائل، فهذه الطريقة التي قُدِّمت على يد رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) أنزل عليه القرآن واختِير هو نبياً، وعندما تحرك والتفّت حوله دائرة، أصبح في الأخير ماذا؟ العربي من القبيلة الفلانية ومن القبيلة الأخرى ومن أيِّ منطقة تركوا آلهة يعبدونها، أليست مسألة آلهة يعبدونها أرقى من مسائل فقهية في تعصبك لها وفي انشدادك لها؟ تركوا آلهة واجتمعوا هناك.

إذاً فهذه القاعدة هي القاعدة المهمة وهي الطريقة المهمة وطريقة لا تحتاج إلى مؤتمرات، فالتوجيه ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ هو قائم واجب عليكم، وطريقة الاعتصام بحبله هو الذي يختص بها، هذا حبله القرآن الكريم ومن يختاره أن يكون عَلَماً مع كتابه، هنا في الأخير تتحقق وحدة بين الناس وكل واحد لا يرى أنه تنازل لطرف آخر كل واحد يرى أنه تخلى والآخر تخلى ونفوس طيبة ويتفاعلون بإيجابية مع ما هم مؤمنون به بنسبة ١٠٠٪ لكن عندما يُقدَّم تلفيقات يكون إيماناً ٥٠٪ أو أقل.

لهذا نقول بأننا عندما نخطب، عندما نتحدث مع الناس لا تتحدث أنت معهم ودائماً ترسِّخ في أذهانهم ما يبدو أمامهم مستحيلاً (لو توحد العرب ولو توحد المسلمون) هذه مقولة يمكن أن تقولها، لكن يجب أن نتحدث مع الناس بأن الله لم يجعل القضية مترتبة أو معلقة على ما هو مستحيل أمامنا، بل رسم طريقة فالذي يسير عليها من الناس تتسع دائرتهم تتسع، كما بدأت هذه النقطة واتسعت، بدأت برسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) وعلي وخديجة، ثلاثة، ثم اتسعت الدائرة حتى أخذت الجزيرة، ثم حتى تغلغلت إلى داخل بلدان أخرى. هل عمل رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) مؤتمرات بين العرب ومحاولة توحيد الأصنام؟ (بدل ما يكون صنم هؤلاء صغير، وصنم هؤلاء كبير، هؤلاء من الخشب، هؤلاء حجر، هؤلاء كذا) وتلفيقات وأشياء من هذه، لا، طريقة كلها جديدة.

ولهذا قلنا: إنه من معجزة هذا الدِّين أنه استطاع أن ينقل العرب تلك النقلة الرهيبة، النقلة من التشبث بآلهة يسمونها آلهة يعبدونها ويعتبرونها آلهة، يتخلون عنها ومن أمة فوضوية إلى أمة انتظمت فعلاً، ألم تنتظم؟ ولو لم يكن إلاّ في فترة رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لكان شاهداً كفاية وفوق الكفاية أن يشهد بعظمة هذا الدِّين، استطاع أن يجعل أولئك العرب الذين كانوا يتقاتلون، بما فيهم أهل المدينة التي هاجر إليها كانوا فئتين متقاتلتين، كل فترة وخرجوا إلى خارج المدينة يتقاتلون؛ ولهذا قال هنا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(آل عمران:١٠٣) فعندما تقول (حقيقة، الوحدة قضية مهمة، لكن يُوجَد عداوات، ويوجَد، ويوجَد...) فيجب أن تفهم: أن نعتصم بحبل الله هو الذي سيُوجِد من جهة الله سبحانه وتعالى، وسيأتي من جهته تدخّل إلهي فيؤلف بين قلوب الناس وإن كانوا أعداء.

لهذا في توجيهنا يجب أن نركّز على هذه النقطة؛ لأن كثيراً من الناس قد تلمس عندما تسمعه يقول لك (حقيقة، هم أعداء، والأمريكيون ملاعين، واليهود ملاعين، والنصارى كذلك، لكن العرب لم يتوحدوا) هو في الأخير هنا يرى العرب مشتتين فيتردد؛ لأن القضية هي هكذا في الذهنية: إنما فقط إذا توحَّد العرب جميعاً، إذا توحَّد المسلمون جميعاً فيمكن. يراها مستحيلة فيقعد، فرأى من يتحركون (بأن هؤلاء أناسٌ مغفلون يتحركون وهم قليل يتحركون و...)! لا.

إن هذه هي البداية الصحيحة عملياً لتوحيد أمة تكون هي هناك بهذا الشكل المتكامل، لا تكون تلفيقات؛ لهذا نقول: بالنسبة لنا ليس ممكناً أن يكون مؤثراً علينا – مثلاً – في مسيرتنا أن يكون الناس منتبهين تماماً ألاّ يأتي أيُّ شيء بين سُنة وشيعة أو سيَضيع كل شيء، ليست المسألة معلقة على هذا، فعندما نأتي نَعتبر مثلاً بأن المسلمين لن ينجحوا إلاّ إذا توحَّد سُنة وشيعة، أليس كذلك؟ أو يجب أن يتوحَّد السُّنة والشيعة ويجب ألاّ يكون هناك أيُّ طرف من هنا أو من هنا قد يكون من عنده ما يُوجِد خلافاً بين سُنة وشيعة، هذا موضوع، أنت هنا تعلق الفرج على المسلمين – مثلاً – أن يكونوا منتصرين على أعدائهم، بما هي في الذهنية شبه مستحيلة، أليس باستطاعة الآخرين أن يحرّكوا من داخل الشيعة، ويحرِّكوا من داخل السُّنة؟ هل باستطاعتك أن تغلق هذا الباب؟ كيف تعلق المسألة على قضية ليس باستطاعتك أن تقفلها؟ هذا معناه في الأخير مستحيل، إذاً القضية ليست معلقة على توحد سُنة وشيعة.

هو مطلب أن يتوحد الناس ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾(آل عمران:١٠٣) لكن عملياً، لو تقول: هي متعلقة على هذا، كان معنى هذا أن هذه الآية اصطدمت بواقع مستحيل، أليس المعنى هكذا؟ والله يقول في القرآن: ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنزَلَ عَلَىٰ عَبْدِهِ الْكِتَابَ وَلَمْ يَجْعَل لَّهُ عِوَجَا * قَيِّمًا﴾(الكهف:١،٢) قيّماً لا يمكن أن يصطدم به

شيء يجعله يعوجّ ويرتد على نفسه ويفشل، أبداً، فقط الناس يفشلون هم، نفشل نحن، أمّا نفس ما قدّمه الله فهو قابل للتنفيذ، وفي الأخير لا تدري إلاّ وتصبح مشكلة فيما بين الشيعة أنفسهم، وما بين السُّنية أنفسهم.

يأتي الأمريكيون يحرِّكون من داخل السُّنية سنييّن يشاغبون ضد الشيعة، السني الذي هو حريص على أنهم يتوحدون (وضروري أن يتوحدوا وإلاّ فلا نستطيع أن نعمل شيئاً) وفي الأخير يتحرك ضد ذلك، وإذا بالسُّنية من داخلهم قد صاروا متصارعين، إضافة إلى ما سيحصل من تأثر بما يشتغل به الآخر من داخل السُّنة أو من داخل الشيعة، أي: القضية لا يستطيع أحد أن يغلقها، لا تستطيع أن تقفلها أبداً عندما ترتب المسألة على هذه، فمعنى هذا أن العدو عندما نقول: نحن لا نستطيع أبداً أن نقف موقفاً إيجابياً في مواجهته إلاّ إذا توحدنا كلنا سُنة وشيعة، فيكون هو يركّز على المسألة: يركز على أن يُوجِد خلافاً دائماً بين سُنة وشيعة، ويثير من داخل الشيعة ويثير من داخل السُّنة، فكلما وجد إنسان – مَهمَا كان مخلصاً ومتفاعلاً – أنهم ما رضوا أن يتوحدوا، حصل عنده ماذا؟ حصل عنده إحباط، وفي الأخير يقعد ويقول: (المسؤولية على السُّنة والشيعة لم يرضوا أن يتوحدوا). هذه الطريقة فيها ما يطمِّع العدو: أن تُقدِّم له بأنك لا يمكن أن تقف في مواجهته إلاّ إذا قد توحَّدت الفئتان اللتان بعيد أن تتوحدا على ما هما عليه.

إذاً فالمشروع الإلهي القابل للتنفيذ هو على هذه القاعدة القرآنية والتي عملها رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) والتي تحقق نصراً؛ لأن الوعود الإلهية ليست متعلقة على أن يتوحدوا سُنة وشيعة، هذه الوعود الإلهية نزلت والمسلمون ربما أقل من عدد سكان محافظة من هذه المحافظات في اليمن. وعود إلهية بالنصر بالتأييد بأن يؤلف بين قلوبهم، لا يقول: إنما فقط إذا كان سيجتمع العرب جميعاً أو يتوحدوا سُنة وشيعة فسوف يؤيدهم بنصره، أمَّا إذا كان هناك أناسٌ آخرون سيتوحدون ويسيرون على كتابه فيقول لهم: لا، هو رحيم سبحانه وتعالى، عندما يُوجَد – مثلاً – إلى حدود ألف أو ألفين مستعدِّين أن يتوحدوا على كتابه فهل يمكن أن يقول الله لهم: (أبداً رُوحُوا لكم، إنما فقط إذا توحدوا سُنة وشيعة)؟ أبداً، وعوده تَصْدُق حتى على أقل منهم.

إذاً، فالطريقة القرآنية هي طريقة قابلة للتنفيذ وقابلة فعلاً بأن يتوحد حولها سُنة وشيعة؛ لأنه ما الذي عند السُّني؟ وما الذي عند الشيعي؟ أليست مسائل مُعيَّنة؟ تشبثه بها قد يكون دون تشبث العربي السابق بإله، كلمة (إله) قضية ليست سهلة عنده، تركوا الآلهة وساروا وراء رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) ودانوا بتوحيد إله واحد وهو الله، إذاً فالدِّين الذي نزل على العرب وجعلهم يتركون آلهتهم ممكن أن يجعلهم يتركون مسائل مُعيَّنة، سواءً ولاءات لأشخاص أو مسائل فقهية أو مسائل من هذه هي اعتقادية، هي كلها دون ما كان عند العربي الأول باعتبار تشبثه بها، ولن يمس الاعتصام أو هذا المشروع القضايا الأساسية عند الكل، أليسوا مؤمنين بالله، ومؤمنين بأنه لا يجوز أن يكون له شريك؟ أليسوا مؤمنين بوجوب اتباع ما جاء من عنده؟ أليسوا مؤمنين بالقرآن ووحدة القرآن؟ وحدة نصِّه ووجوده تُعتبَر نعمة كبيرة جداً، نعمة كبيرة أن القرآن الكريم ما زال موجوداً والعرب والمسلمون جميعاً متفقون عليه.

ليسوا مثل اليهود والنصارى، اليهود قد ضيعوا التوراة، والنصارى كم لديهم أناجيل؟ أربعة على الأقل هي الموجودة الآن تتداول بينهم، وكل إنجيل فيه خلاف الإنجيل الآخر! أمَّا العرب أمَّا المسلمون فما زال معهم القرآن كلهم متفقون على الإيمان به، كلهم متفقون على وجوب العمل به، متفقون على الإيمان برسول الله محمد (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) متفقون على قِبلة واحدة، لا يزال هناك عناوين يمكن أن تشكّل اتفاقاً، أي: عندما يأتي أحد بمشروع على أساس القرآن فهل سيلامس في الأخير قضايا أساسية لديهم يتخلون عنها؟ أليسوا متفقين – كعناوين – على صلاة، زكاة، حج، صيام، جهاد، وِحدة؟ متفقين على أنها كلها واجبات.

إذاً فالخلل هو من مسألة التقديم، مسألة من يُقدِّم، من يثق بأن هذه الطريقة قابلة للتنفيذ، ويعرف أنها ناجحة، كما أنها نجحت في العرب الأولين فنقلتهم وتركوا آلهة، فهؤلاء سيتركون ما هو دون الآلهة فعلاً، يجتمعون على الكتاب على طاعة الله وطاعة رسوله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) لكن إذا قُدِّم بطريقة صحيحة، أمَّا أن يأتي واحد من داخل الشيعة يؤقلم القرآن معه ويريد أن يجعل السُّنة يكونون مثله على رؤيته ومذهبه وطريقته، أو واحد من داخل السُّنية يقول (فعلاً الكتاب لكن تعالوا الكتاب هذا تفسيره) ويؤقلمه معه، ويقول للناس أن يتحولوا إلى سُنة، فهذه لا تتم.

لا بُد أن يُقدَّم القرآن بطريقة صحيحة، طريقة تنفي أيَّ خطأ هنا أو هنا، طريقة تعطيه أولوية لا تؤقلمه أبداً لا وفق أشخاص مهما كان ولاؤك لهم، ولا وفق مذهب مهما ترسَّخ في ذهنك وتكرر في ذهنك الولاء له، لا، أن

تجعل القرآن هو الأصل، هذه القاعدة المسلمون متفقون عليها، أي: حتى هذه هم متفقون ويقولون عن أئمة المذاهب أن كل واحد يقول: أعطوا أولوية لكتاب الله وسنة رسوله، أليس كل واحد يقول هذه؟ يقولون عنهم: إن كل واحد من أئمة المذاهب يقول: (إذا صح لكم عن رسول الله كذا فاضربوا بقولي عرْضَ الحائط) إذاً أليس بالأولى فيما يتعلق بالقرآن، أي: لا أحد سيقول إن عنده عقيدة أنه سيتبع فلاناً وإن كان مخالفاً للقرآن، هذه كـ(عقيدة) غير حاصلة وإن كانت واقعاً قائمة، لكن كعقيدة هم متفقون على أن القرآن له الأولوية على أيِّ شخص من أئمة المذاهب، هذه قاعدة حاصلة، هذه لا تزال نعمة.

إذاً فعندما يقولون: (مقومات التوحد متوفرة) لكن تكون الغلطة في الطريقة من البداية كيف تكون، عندما يقول (إذاً نحن متفقون على صلاة وصيام وزكاة إذاً نحاول كيف نؤقلم صلاتنا وكيف نؤقلم...) يعني ماذا؟ لفلفة ولملمة وتلفيقات، لا، بل عليك أن تشغّل هذه العوامل التي تسميها عوامل توحُّد، أن تعتبرها أرضية قابلة لماذا؟ لأن يسيروا على هذا الشيء الذي هم متفقون عليه – فعلاً – وهو القرآن الكريم، لا أن تنطلق في الأخير إلى هناك إلى داخلهم وتعمل بينهم لملمة وتلفيقات وكل واحد لا يزال متمسكاً بما هو عليه.

لهذا، لاحِظ في القرآن الكريم كيف تكررت كثيراً وهو يدعو اليهود إلى الإيمان، ألم يقل فيه: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ (النساء:٤٧)؟ لكن عندما قال: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾ على أساس أنها تُعتبَر أرضية تجعلكم قابلين للإيمان بهذا، ليس معناه إذاً ما دام أن لديكم شيئاً صحيحاً وهذا صحيح فتعالوا نعمل تلفيقاً ونعمل وثيقة مشتركة بين الطرفين، لا، هو يقول: ﴿مُصَدِّقًا لِمَا مَعَكُمْ﴾(النساء:٤٧) ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾(آل عمران:٩٩) فعندما يقول: ﴿وَأَنْتُمْ شُهَدَاءُ﴾ أي: هذه الحالة التي لديكم، هذا لا يتنافى معها من حيث المبدأ؛ فيجب عليكم أن تتجهوا للإيمان به.

هذه طريقة أساسية في موضوع توحيد المسلمين، أنك هكذا تدعوهم: ألسنا مؤمنين جميعاً بالقرآن؟ أليس كل واحد من أئمة مذاهبنا يقول بأن نَضْرِب بكلامه عُرْضَ الحائط إذا كان مخالفاً لكتاب الله ورسوله؟ إذاً فتعالوا نعطِ القرآن أولوية، أليست هذه قضية قريبة؟

ثم من الناحية الأخرى لا تتمثل في موضوع مجرد حوار، بل يجب أن تكون هناك حركة قائمة على أساسه؛ لأن المسألة لا تنتهي إلى مجرد دعوة ومجرد حوار ومجرد مناظرات ستنتهي – تقريباً – إلى لا شيء، يجب أن تكون بهذا الشكل: دعوة على هذا الأساس، وحركة قائمة على هذا الأساس؛ لأنه من خلال الحركة للأمة يحصل تأييد إلهي فيُلمَس في داخلها ما يجذب الآخرين إليها، هذه قضية أساسية في توحيد المسلمين، ليست مجرد حوارات.

إذاً فالبعض عندما يقول: (نحاول أن يبتعد الإنسان ألاّ يُقدِّم شيئاً يكون مثيراً لآخرين، نحاول أن نسكت عن بعض أشياء، ونحاول، ونحاول؛ من أجل أن تبقى كلمة المسلمين، أو إذا كان لا يزال بالإمكان أن يتوحدوا) هذه طريقة تلفيقية، هذه غلطة، إذا كان أحد من داخل أيِّ مذهب ينطلق مع الناس على أساس أن يجرَّهم إلى مذهبه، فهذا لن يحصل؛ سيبقى صراع دائم، لكن أن تأتي وتقول: القرآن الكريم هو الأساس، رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) فننقد ما عندنا جميعاً، عندما تنقد ما عند الكل، عندما تنقد هذه الأشياء باعتبار أنها تعيقهم عن اتباع القرآن الكريم وأنها وراء الحالة التي وصلنا إليها، هذه القضية لا تسمى مذهبية، لا تسمى دعوة إلى طائفة مُعيَّنة، لا تسمى حركة من قِبَل مذهب يريد أن يُدخِل الآخرين فيه على ما هو عليه.

ألسنا ننقد الكل داخلنا نحن كزيدية وداخل الاثنا عشرية وداخل السُّنية بشكل عام؟ نحن نقول للجميع: يجب أن نعود جميعاً، وعندنا أخطاء جميعاً، لنعتصم بحبل الله جميعاً، وليس كل واحد يعمل له حبلاً ثم يدعو الآخرين إلى أن يعتصموا به؛ لأنها غلطة من الأساس، هم طوائف وكل طائفة تَعتبِر نفسها أن معها حبلاً أو أن حبلها هو حبل الله، والآخر يقول: إن حبله هو حبل الله، وهكذا. لا، نعود إلى حبل الله الذي نعرفه جميعاً ومتفقون على نصه وهو القرآن الكريم؛ لأن الله ذكر في كتبه أنها بالشكل الذي يمكن أن تُوحِّد بين ملتين عندما قال: ﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ لَيْسَتِ النَّصَارَى عَلَى شَيْءٍ وَقَالَتِ النَّصَارَى لَيْسَتِ الْيَهُودُ عَلَى شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾(البقرة:١١٣) أليس معنى هذا أن في الكتاب ما يمكن أن يوحدهم؟ وهم هنا ملتان، ويلعن بعضهم بعضاً، ويكفّر بعضهم بعضاً، وهنا يقول: ﴿وَهُمْ يَتْلُونَ الْكِتَابَ﴾ لأن الكتاب بالشكل الذي يمكن أن ينسف هذا الخلاف الذي بينهم ويجعل منهم أمة واحدة، أفلا يستطيع الكتاب نفسه أن يجمع المسلمين وهم لا يزالون ملة واحدة؟ إنما فقط مذاهب داخلها وما زال المجموع عبارة عن ماذا؟ ملة واحدة.

تلاحظ أنه في هداية الله سبحانه وتعالى، في توجيهاته، هو يعلم ما يمكن أن يحصل عند الناس من أشياء

تجعل ما دعا إليه وكأنه مستحيل ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾ قد يقول: (لكن كيف ونحن قد يكون هناك أعداء وعداوات ونفوس متباينة؟!) هو هنا يذكّرهم بأنه يتدخل متى ما اتجهتم بصدق إلى أن تعتصموا بحبله جميعاً فهو سيغير النفوس ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾(آل عمران:١٠٣) هذه تعني بأنه لا يمكن في موضوع الوحدة أن تشكّل لجنة من هنا وهنا ويضعوا خطة ليلتقي عليها الكل؛ لأن القضية لا بُد أن تكون الخطة فيها هي الخطة التي يكون الله معها ويقرُّها هو، لماذا؟ لأن القضية تحتاج إلى تدخل إلهي بالنسبة للنفوس، كما قال هنا: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ مجتمع مُتعادٍ هل هو قابل لأن يعتصم بحبل واحد؟ هل هو قابل؟ إذا حصل عنده توجُّه ونية وآمن من حيث المبدأ واتجه فالله يتدخل فيؤلف بين القلوب، إذاً فلا بُد أن تكون خطة الوحدة أو الخارطة – لمن هم يقدمون خرائط – أن تكون ماذا؟ هي الخطة التي يكون الله معها؛ لأنها مسألة لا بُد من تدخّل إلهي فيها.

﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ وباعتبار آخر يذكّر المسلمين بأن أهل الكتاب سيوقعونكم في خسارة لكل ما أوصلكم هدى الله إليه من النعمة العظيمة.

﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا﴾(آل عمران:١٠٣) فلا تخسروا هذه النعمة، نعمة الهدى، نعمة الإيمان، حتى أصبحتم على هذا النحو، فلا تخسروا هذه النعمة التي أنتم فيها، أي: فيها ما هو توجيه قبل أن يكون الناس على هذا النحو، وفيها ما هو توجيه لهم وهم على هذا النحو؛ لأنه عندما يقول عن أهل الكتاب: ﴿يَرُدُّوكُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ كَافِرِينَ﴾(آل عمران:١٠٠) أليس معناها خسارة لكل ما أوصلكم هدى الله إليه؟ ﴿وَكُنتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِنْهَا﴾ وهؤلاء يريدون أن يردوكم كافرين فتكونوا في ماذا؟ ليس فقط ﴿عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ﴾ بل في الدركات السفلى من جهنم ﴿كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾(آل عمران:١٠٣) أليس هذا يوحي بطريقة عملية؟ اهتداء لحركة، اهتداء لمسيرة، اهتداء لرؤية. هكذا ﴿يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ﴾ كلمة (آيات) نفسها تعني بينات وأيضاً يُبيّن البينات، أليس هذا من كمال الرحمة، ومن أعظم مظاهر رحمة الله بعباده؟ ﴿لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾.

﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤) اجعلوا من أنفسكم أمة على هذا النحو، أليس هذا توجيهاً عملياً، أوامر عملية؟ إذاً، ترى في الأخير أنه غير مقبول أن يأتي أحد من الناس يقول: (حقيقة أنه وضع سيئ، ولكن سنكتفي بالدعاء) فقط. إنها أوامر كلها عملية، اهتداء ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾ فعندما يقول: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾ هل سيترك المسألة مبهمة، أو تُترَك لأمزجة الناس في كيف يكونون أمة؟ هذه قاعدة قرآنية: كل ما وجّه به هو يرسم طريقته كاملة عندما يقول: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾ هو سيوجِّه إلى كيف يعمل الناس ليجعلوا من أنفسهم أمة.

من البداية قال: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾(آل عمران:١٠٣) أليس هذا التوجيه إلى المنهج الذي يسيرون عليه، وللمسؤولية التي يتبنونها أو ينهضون بها؟ ليس معنى ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾(آل عمران:١٠٤) أن تتجمعوا، تكون الشوارع مليئة والسوق ممتلئاً، و... لا، أمة مجتمعة على اعتصامها بحبل الله تنهض بمسؤولية هي هذه، مسؤولية كبيرة تشمل – تقريباً – كل شيء ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آل عمران:١٠٤) هذه ثلاثة عناوين كبيرة تحتها تقريباً كامل المسؤولية فيما يتعلق بالالتزام بدين الله، وإقامة دين الله، إعلاء كلمة الله، مواجهة أعداء الله، تتناول القضايا التربوية العملية، كل شيء.

الآية هنا عندما يُقدِّم ﴿يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾ معناه أمة كل ما هو مسيطر على مشاعرها على نفسيتها أنها داعية إلى الخير، تدعو البشر جميعاً إلى الخير، هذه القاعدة أساسية لديها، هنا لا يجعل تكتلات – كما يقال – تكتلات ذات مواقف إقليمية أو شخصية من أطراف أخرى أبداً، بل تكتل ديني، الشيء الذي يريده للبشر جميعاً هو الخير؛ فيدعون إلى الخير، والجهاد بكله هو من باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ومن أجل إقامة الخير ﴿وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ﴾(آل عمران:١٠٤).

عندما يقول: ﴿وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾ تجد أن قضية الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي مسؤولية جماعية، الواجب فيها مترتب على خطاب جماعي، فيما يتعلق بك أنت كفرد تتناول الذي يمكن أن تلحقه يدك من أمر بمعروف ونهي عن منكر، ليس معناه ويكفي، بل يجب أيضاً أن يكون الناس أمة؛ لأن

هناك من المنكرات ما لا يستطيع شخص أن يُغيِّره، بل يحتاج إلى أمة، وهناك من المعروف ما لا يستطيع شخص أن يأمر به ويقيمه.

ونفس العبارة ﴿يَأْمُرُونَ﴾ و﴿يَنْهَونَ﴾ لا تتم إلاّ عندما يكون الناس أمة وإلاّ لكانت العبارة البديلة (يُفتون) هنا لا يوجد هكذا فتوى (يُفتون) بل قال يأمرون وينهون، ما معنى يأمرون وينهون؟ هم في موقع قوة، يأمر وينهى يعني ماذا؟ أشياء عملية، أليست أشياء عملية هنا؟ لا يقال بأن فلاناً أمر أو أنه نهى إلاّ إذا كان في موقع تنفيذي، وإلاّ هو فقط يقال: قضى أو يقال أفتى، ليس معناه أمة تفتي فقط، بل تأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر؛ هذا توجيه عملي.

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران:١٠٥) لاحظ هذه الآيات كيف هي مليئة بالتوجيه بوحدة الكلمة، أمة متوحدة ومعتصمة بحبل الله جميعاً، عندما يقول: ﴿وَلْتَكُن مِنكُمْ أُمَّةٌ﴾(آل عمران:١٠٤) أليس هذا توجيهاً يشبه ﴿جَمِيعًا﴾ يأتي بعدها ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(آل عمران:١٠٥) لأن مسؤوليتكم كبيرة، ومسؤولية لا تنهضون بها إلاّ إذا كنتم أمة، تجعلون من أنفسكم أمة أو تقول هي مسؤولية تحتاج في النهوض بها إلى أمة، الأمة اسم يُطلق على قليل أو كثير، يُسَمَّون أمة إذا قد أصبحوا مجموعة متحركة، فالخطاب يتناول المسلمين جميعاً أنه يجب أن يكونوا هكذا، كتوجيه يجب أن يكونوا هكذا، لكن عملياً لا يتوقف – مثلما قلنا سابقاً – على أنه لا بُد أن يجتمعوا كلهم جميعاً فيكونوا هكذا.

﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ تأملْ عندما عرَض علينا تاريخ أولئك الذين تفرقوا واختلفوا كيف أصبحوا، بدل أن ينهضوا بمسؤوليتهم في أن يكونوا أمة تدعو إلى الخير وتأمر بالمعروف وتنهى عن المنكر كيف كانوا؟ أصبحوا شراً، بلغوا إلى درجة: يقتلون الأنبياء بغير حق، ويقتلون الذين يأمرون بالقسط من الناس، ويكفرون بآيات الله، ويضلون عباد الله.

فالتحذير عن التفرق والاختلاف معناه أنها قضية هي التي تضرِب هذه المسؤولية الكبيرة، أن أيَّ أمة تصبح متفرقة معناه أصبحت أمة عاجزة عن النهوض بمسؤوليتها، ولا يكون البديل عندها إلاّ ماذا؟ إلاّ ضلال، لم تعد تُقدِّم إلاّ ضلالاً؛ فنهانا ونهى الناس بشكل عام أن نكون كأولئك ﴿الَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ البينات التي ترسم لهم طريقة واحدة يسيرون عليها فلا يتفرقون ولا يختلفون، بينات كيف يكون توحدهم، بينات بكل ما تعنيه كلمة بينات، أي: واضحات. هم تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءتهم بينات، ماذا يعني عندما يحصل هذا الاختلاف والتفرق بعد البينات؟ أليس معناه تعمداً؛ ولهذا قال: ﴿وَأُولَئِكَ﴾ مَن يتفرقون ويختلفون من بعد ما جاءهم البينات ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾ وعظيم أكبر من أليم ﴿عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾.

كما قلنا سابقاً بأنها قاعدة قرآنية: متى ما أمر بالتوحد فاعرف بأنه سيرسم طريقة التوحد، متى ما نهى عن التفرق فاعرف بأنه سيرسم الطريقة التي تُبعد الناس عن التفرق، إذاً كيف عندما يأتي كثير من الناس يقولون: (لكن التفرق ضروري، الاختلاف ضروري، وأنه ضروري أن نختلف)؟! ماذا يعني هذا؟ يعني جهلاً بالله سبحانه وتعالى في المقدمة، جهل بالله وكأنه يوجِّه توجيهات لا يعلم بأنها ستصطدم بالواقع! أليس هذا شأن القاصر الذي لا يعلم الغيب والشهادة؟

عندما يقول: ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا﴾ بمعنى أنه قدَّم طريقة تجعل الناس الذين يسيرون عليها لا يتفرقون ولا يختلفون لا في كبيرة ولا في صغيرة على الإطلاق، أي: يقول هناك: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ فيُبيِّن بأنها سُنة لديه، أن من وجدناهم اختلفوا من قبل (الأمم السابقة) ما كانوا يختلفون لتقصير من جانب الله سبحانه وتعالى، إنما كانوا يختلفون متعمدين، ويخالفون بغياً من عندهم، عمداً وعدواناً، مخالفة واضحة لبينات الله.

عندما ينهانا نحن – هذه الآية موجَّهة إلى المسلمين بالذات ينهاهم عن التفرق والاختلاف – ألاّ نكون كأولئك الذين تفرقوا واختلفوا من بعد ما جاءهم البينات، أليس معنى هذا بأن الله بالتأكيد قد وضع بينات للناس للمسلمين أنفسهم توضح لهم الطريقة التي إذا ساروا عليها فإنهم لا يختلفون ولا يتفرقون؟ ما الذي حصل؟ ولهذا نقول: إننا نشكو من ثقافة رهيبة جداً في أخطائها، هم محاولون كيف يسيرون على طريقة هم قد علموا قطعاً بأنها تؤدي إلى الاختلاف: طريقة (أصول الفقه) و(علم الكلام) هذه المناهج التي قُدِّمت

تؤدي إلى الاختلاف، وجُرِّبت وأدت إلى الاختلاف، وأصبح الاختلاف باباً من الأبواب التي تُبحَث فيها، أي: نفس الاختلاف أصبح من المباحث التي تتناولها كتب (علم الكلام) وكتب (أصول الفقه) وقدَّموا المسألة ضرورية، أي: (لا بُد من الاختلاف). ثم انطلقوا يحاولون كيف يجعلون الاختلاف مشروعاً، أليست هذه طامَّة أخرى؟ أي: كان المفروض أنهم إذا عرفوا بأنهم عندما ساروا على منهجية مُعيَّنة أدت بالسائرين عليها إلى الاختلاف أن يحصل تقييم يقولون: (إذاً هذه طريقة غلط، نحاول أن ننظر إذا كان هناك طريقة إذا سرنا عليها لا نختلف) بدل هذه اتجهوا إلى ماذا؟ إلى أن يُضفوا على الاختلاف شرعية! أليست هذه تُعتبَر طامَّة أخرى؟ يقول لك: (يجوز الاختلاف في كذا، وكذا، وكذا. لكن لا يجوز الاختلاف في ماذا؟ في الأصول). مجرد عنوان، وجدناهم مختلفين في الأصول والفروع، إذا كانوا متفقين على عنوان فهم يختلفون في تقديمه وفي النظرة إليه وفي تقييمه.

ألم يكن الشيء الطبيعي أنه: من هذه الآية وحدها – هذه الآية وحدها تنسف كل المنهج الذي قُدِّم للناس ورأوا هم ورأينا جميعاً بأنه أدى إلى الاختلاف، هذه الآية نفسها، أليست تكفي؟ – ألم يكن التصرف الطبيعي لو كان هناك اهتداء بهدى الله هو: أن يعودوا إلى البينات ليبحثوا هذه البينات ما هي البينات؟ لأن الله عندما يقول: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ وتوعَّد بعذاب عظيم، إذاً فكان يجب أن تنصرف الذهنية كلها إلى البحث عن هذه البينات؛ لأنها بالتأكيد بينات ترسم لنا طريقة لا نختلف عليها.

هل تجد مبحثاً في داخل كتب (علم الكلام) أو داخل كتب (أصول الفقه) عن هذه البينات ما هي؟ لا يوجد، أليس هذا يدل على ضلال رهيب جداً؟ ضلال رهيب جداً حصل داخل المسلمين بشكل عام عندما يبقون على هذه المنهجية؛ لأن القضية قريبة عندما يقول: ﴿مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾ بالتأكيد هناك بينات بالنسبة لنا؛ إذاً فلا نتفرق ولا نختلف، بل ننظر ما هي البينات لنسير عليها جميعاً، هذه لم تحصل، لم تُبحَث! انشغلوا بإضفاء شرعية على الاختلاف كيف يكون سائغاً، بل كيف يجعلونه طبيعياً، وكيف يجعلونه من ضروريات الحياة، وأنها قضية طبيعية عند الإنسان! لكن لاحِظ لَمَّا تفرقوا واختلفوا ونبذوا البينات جانباً، ألم يَظهَروا ضعافاً؟ أليس المسلمون ظهروا ضعافاً بشكل مُخزٍ في مواجهة بني إسرائيل في مواجهة أهل الكتاب الآن في هذا الزمن؟ ألم يصبح بعضهم يوظف علومه واجتهاداته لصالح اليهود من حيث يشعر أو لا يشعر؟

يُبيِّن لك أهمية ألاّ يكون هناك تفرق ولا اختلاف في مواجهة بني إسرائيل بشكل رئيسي، وهي قضية لا بُد منها، أي: أنه في مسيرة الدِّين قُدِّم بالشكل الذي لا يؤدي إلى تفرق ولا اختلاف، لكن التأكيد على هذه هو تأكيد بزيادة، تأكيد بشكل رهيب جداً، تذكير بما هو قائم؛ لأن دين الله قُدِّم على هذا النحو الذي ليس فيه تفرق ولا اختلاف، ومع هذا نبَّه المسلمين بألاَّ يكونوا كأولئك، فلم يعملوا بهذا التوجيه، بل تفرقوا واختلفوا؛ فوجدناهم ضعافاً أمام بني إسرائيل، بل وصل الاختلاف والتفرق إلى درجة أن نُسفت المسؤولية، أي: أنهم ليسوا الآن – فقط – مختلفين في طرق مواجهة بني إسرائيل (أهل الكتاب) وأن لديهم روحاً عملية إنما هي فقط طرق مختلفة. بل لا يوجد روح عملية عند الكثير، نُسفت المسؤولية تماماً.

إذاً، عندما يقول البعض: إن الاختلاف هو طبيعي بالنسبة للإنسان، أليسوا يقولون هكذا؟ نقول: حقيقة أن الناس يختلفون، لكن لأن الله يعلم هذا فإنه لم ينزل دينه إلى الناس ليمزقوه، بل جعل دينه بشكل يكون نظاماً يلتقي حوله الناس فلا يختلفون، ويتولى هو رسم المسيرة كاملة؛ ولهذا قال: ﴿إِنَّ عَلَيْنَا لَلْهُدَى﴾(الليل:١٢) لو ينزل المسألة إلى بينهم سيختلفون، وهذا الذي حصل، ألم يحصل؟ قَدِّمْ أيَّ شيء بين الناس، قَدِّمْ دستوراً أو قَدِّمْ قانوناً أو قَدِّمْ فكرة مُعيَّنة وقل: خذوا، واتركهم يبحثوها ويُقدِّموا رؤى، أليسوا سيقدِّمونها مختلفة؟ فهذا يمثل في حد ذاته شاهداً على أنه لا يصح أن ينزل الله دينه هكذا للناس ويقول كل واحد يمشي على ما ترجَّح لديه وعلى ما فهم؛ لأنهم سيختلفون بالتأكيد.

فالقضية أصبحت معروفة عند البشر أنفسهم، وداخل الأنظمة الديمقراطية نفسها، أليسوا في الأنظمة الديمقراطية يقولون: حرية كلمة، وحرية تعبير، وحرية تعدُّد، وأشياء من هذه؟ لكن هل يسمحون في الدستور أن يكون خاضعاً لأصحاب الآراء المتعددة والأحزاب المتعددة، أم أنه يكون دستوراً واحداً ونصوصاً واحدة؟ ومتى ما نزل قانون يجب أن يكون بنوداً واحدة، هل تركوا المسألة بأن كل حزب يُقدِّم دستوراً وكل حزب يُقدِّم قانوناً؟ لا، أي: أن القضية معروفة حتى عند البشر، لماذا لا تتركوننا وأنتم تقولون حرية الرأي والرأي الآخر وتعدُّد وحرية الكلمة وحرية كذا... لماذا لا تتركوننا كل واحد يُقدِّم دستوراً على كيفه؟ كيف سيقولون؟ سيقولون: لا

يمكن، لا يمكن أن يكون هناك نظام يترك لهذا الأسلوب؛ لأنه يعني في الأخير لا يحصل شيء، لا يحصل نظام يمكن أن ينظم مسيرة أمة على الإطلاق.

إذاً، أليست هذه قضية معروفة حتى داخل الأنظمة التي تدعو إلى ماذا؟ إلى التعددية الحزبية وحرية كلمة ورأي ورأي آخر؟ أقفلوها، إلاّ في دين الله قالوا يجب أن تبقى مفتوحة، اجتهادات وترجيحات ورؤى وكل واحد على ما ترجّح لديه وعلى ما غلب في ظنه وعلى ما فهمه هو، أليس معنى هذا أنه ينسف تماماً أن يكون الإسلام نظاماً؟ أليس معنى هذا أنه يقطع هذا الحبل تماماً ويحوله إلى ستين حبلاً؟ لا تصبح حتى حبالاً يمكن أن تتمسك بها يجزئه تماماً، أي: في الأخير لا تبتني أمة ولا نظام، وهذا الذي حصل، أليس هذا الذي حصل عند المسلمين؟ الآن كيف وضعيتهم؟ لا الإسلام في الداخل بشكل واحد، ولا هذه الأمة بقيت متوحدة، كل واحد منهم معه حبل وكل واحد يمثل أمة وحده.

ليس معناه: إذا كان الاختلاف طبيعياً بيننا إذاً فنشتغل في الدِّين نحن؛ لأن معناه ماذا؟ سنجزئ الدِّين، ألم تكن هذه القضية يجب أن يُنظر إليها كشاهد على أنه لا يجوز أن يُخضَع الدِّين لآرائنا وأفهامنا وأهوائنا واجتهاداتنا وأنظارنا؟ لأننا سنختلف، سيختلفون وإن كان عندهم حسن نية، البعض يقول: (إنما يخالفون عن هوى!) لكن هل تقول: كل المخالفين لك كلهم انطلقوا عن هوى وهم يعرفون الحق؟! هذه قضية غير صحيحة أن يكون واحد من الناس أو تكون مثلاً طائفة مُعيَّنة ترى أن الحق هو الذي معها، وتلك الرؤية التي هي تراها، والآخرون لماذا يخالفون؟ قال: (عن هوى، كلهم!) ما معنى عن هوى؟ أي: أنهم مخالفون للحق متعمدين وهم يعرفونه وإنما هوى! هذه قضية غير منطقية، إذاً والآخرون هم مثلك يعتقد أن ما لديه هو الحق ومقتنع به ويدين الله به ويبكي، يبكي من إخلاصه لله مثلما تبكي أنت إذا لديك أحد يبكي.

غير طبيعي عندما تقول: إن كل هؤلاء البشر داخل المسلمين هم يخالفون عن هوى، اذهب إلى الحج ترَ الناس كيف هم، ستراهم مثلك، وكل واحد يعتقد أن طريقته هي دين الله وهو يتعبَّد لله بها، ليس أنه يخالف الحق وهو يعلم!

تجد التأكيدات الإلهية على التسليم له مما ينسف فكرةَ اجتهادات، وترجيحات، وآراء متعددة، وأشياء من هذه، هذه هي قاعدة هامة، إذا كان هناك معرفة بالله؛ لأنه كيف يمكن أن يقول للناس أن يكونوا مسلمين له، ولا يرسم الطريقة التي تمثل إسلامهم له؟! هل سيتركها لأمزجتهم؟! التوجيهات التي رأيناها في (سورة البقرة) وفي (سورة آل عمران) وفي سور أخرى على أن يكون الناس مسلمين له ﴿إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الإِسْلَامُ﴾(آل عمران:١٩) لا يمكن أن يقول لك هكذا إلاّ وقد رسم – تماماً – الطريقة التي تُسلِم نفسك باتباعها، بالسير عليها؛ ولهذا سماه صراطاً مستقيماً، وسماه سبيلاً، ألم يسمِّه سبيلاً، وسماه صراطاً مستقيماً؟ لا يقول: مسلمين: أن تكون مسلماً لله أن تسلِّم لله وتسلِّم نفسك لله ثم بعد ذلك كل واحد يتحرك من عنده يُقدِّم رؤى ويُقدِّم مناهج ويُقدِّم أشياء، ويَعتبِر أنه لأجل أن يسلّم نفسه لله ويسير عليها، أليس معنى هذا بأنه سيعتبر تقصيراً من جانب الله لو أن المسألة بهذا الشكل؟ أبداً، لا يمكن أن يكون هناك تقصير من جانب الله؛ لأنه لا أحد يمكن أن يقول لك أن تكون مسلِّماً إلاّ وقد قدَّم طريقة يمثل سيرك عليها: التسليم له.

إضافة إلى الحالة النفسية لديك، إخضاع نفسك هناك طريقة: ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ فَقَدْ أَطَاعَ اللَّهَ﴾(النساء:٨٠) ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ﴾(الأنعام:١٥٣) هنا معنى التسليم ﴿مَن يُطِعِ الرَّسُولَ﴾ و﴿فَاتَّبِعُوهُ﴾ أليس ذلك معنى التسليم؟ عندما يقول تسليم هنا، أليس فيه طاعة واتباع؟ أليَس فيه أشياء واضحة: صراط ورسول؟ ألم يجعل التسليم قضية عملية؟ أن يكون التسليم قضية عملية، أي: هناك منهج متكامل يمثل تسليمك لله أن تسير عليه.

إذا لم نفهم هذه سنغلط حتى في إخلاصنا لله، ألسنا نقول: ممكن أن تغلط وأنت مخلص؟ لأن أول فاتحة إخلاصك لله أن تسير على كتابه وإلاّ فأنت غير صادق، أنت مخادع لنفسك، أنت تشتغل بالمقلوب، تخلص لله بباطل، أحياناً قد يكون عندك ضلال يكون عندك باطل وتعتقد أنه من دين الله وتقدِّمه لله وتخلص له به، هذه قضية غريبة أن تُقدِّم لله شيئاً هو كاره له ولا يريده وبإخلاص له.

فالإخلاص لله، الذي هو ماذا؟ التسليم لله أو مظهر من مظاهر تسليم الإنسان نفسه لله يجب أن يكون معروفاً لدينا بأنه يتجسد في ماذا؟ أن يكون لديك فكرة أن تتبع: تتبع كتاب الله، تتبع هدى الله، هذا يتمثل فيه إخلاصك لله.

كيف يمكن أن يؤكد على أن يكون الناس مسلمين له؟ كيف نستطيع أن نوفق بينها وبين ما قُدِّم في الأخير بأن الدِّين هكذا (لا يوجد هناك أدلة يقينية، لا يوجد جهة نتبعها، لا يوجد...، ولا، ولا...إلخ. معنا كتاب وسُنة، لا يوجد جهة نقول بأنها هي قائمة على هذا، إنما فقط كل واحد يقوم من عنده يبحث ويجتهد وهو مُلزَم بما أدى إليه نظرهُ وبحثه واطلاعه وترجيحاته!) هل يمكن أن توفق بين تأكيدات القرآن للتسليم وبين هذه المقولة؟ لأن معنى هذه أن هذا الموضوع ضائع، أليس معناه هكذا: لا يوجد طريقة واضحة؟ معناه لا يوجد طريقة واضحة، فكيف يمكن أن يقول الله لك أن تسلم له ولا يوجد طريقة تسير عليها؟! لا يصح، هذا لا يمكن أن يصح عند البشر أنفسهم أن يقول لك: امشِ على الدستور، تلتزم بالقانون ولم يعمل قانوناً، ممكن أن يقول لك هكذا: تلتزم بالقانون تكون مطيعاً ولا يوجد هناك قانون؟! أو يقول لك تكون مطيعاً ولا يُقدِّم لك شيئاً يُعبِّر عن ماذا؟ أن يكون عملك به طاعة له؟ لا يمكن هذا عند البشر، ما بالك عند الله سبحانه وتعالى.

وللأسف أنه إلى الآن لا نزال نتشبث بهذه الطرق التي تنطلق على أساس أن كل واحد يشتغل من عنده، بل بعضهم يقدِّمها كمقترح في حلّ لِمَا يواجه المسلمين اليوم من جانب الأمريكيين والإسرائيليين يقول: (لازم مزيد من الديمقراطية، مزيد من الحرية التي يسمونها حرية الرأي والرأي الآخر) أي: مزيد من التمزق، مزيد من الثرثرة، التي لا يبتني عليها شيء!

وتجد هذه الطريقة، الله رسم من البداية عندما تحدث عن بني إسرائيل، ثم كيف يكون الناس في مواجهتهم، هي هذه طريقة واضحة ﴿وَلاَ تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِن بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ﴾(آل عمران:١٠٥) نحن بحاجة إلى أصول دين، أصول فقه، تهتم بالبحث عن هذه البينات، هذا أصول الفقه الحقيقي، أصول الدِّين الحقيقي، أن يكون هناك أصول فقه وأصول دين يبحث هذه البينات التي إذا سار الناس عليها لا يختلفون ولا يتفرقون.

وكان هذا الوعيد الشديد – كما كررنا – هذا الوعيد الشديد: ﴿وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ﴾(آل عمران:١٠٥) كان المفروض أن يكون بالشكل الذي يدفع الناس الذين من قبلنا جيلاً بعد جيل أن يدفعهم إلى أن يهتموا بالبحث عن البينات التي لا يفترق الناس ولا يختلفون إذا ساروا عليها، لكن الجهل بالله أو النقص الكبير في معرفة الله سبحانه وتعالى يؤدي إلى جهل بكتابه وجهل برسوله وجهل بدينه وجهل بدنياه وجهل بالآخرة وجهل بالإنسان نفسه وجهل بسُنن هذه الحياة.

إن هذه من الأشياء التي تُعتبَر سيئة جداً، أن يجد المسلمون نهياً هنا عن التفرق والاختلاف ثم يحاولون كيف يُشرِّعون ويجعلون الاختلاف مقبولاً، ويردّون على الله بأن: (الاختلاف طبيعي، والاختلاف ضروري) أليس هذا يعني جهلاً بالله بشكل كبير؟ جهلاً بأنه كما قال في آية أخرى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ﴾(الفرقان:٦) نزل هذا القرآن الذي فيه هذه الآية ﴿قُلْ أَنزَلَهُ الَّذِي يَعْلَمُ السِّرَّ فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ﴾(الفرقان:٦) كيف يمكن أن ينهى عن الاختلاف والتفرق ثم لا يرسم طريقة تبعد الناس عن الاختلاف والتفرق؟! هو الذي خلق الإنسان ثم ترد عليه وتقول: الاختلاف طبيعي بين الناس!

تجد من يدعون إلى (الاختلاف) في النظام الديمقراطي: تعددية حزبية وآراء متعددة، أليسوا يحتاجون إلى أن يحسموا الموضوع فيما يتعلق بدستور وقانون؟ يحتاجون إلى أن يحسموه؛ لأنهم عارفون أنه لا يمكن أن نقول: تعددية وحرية في كل شيء بما فيها فيما هو نظام؛ لأن معناه قد يكون هناك مجموعة أحزاب، شعب مليئ بالناس الذين اتجاهاتهم ورغباتهم وأهواؤهم مختلفة. لا بُد من نظام يحكم الجميع، أليسوا يعملون قانوناً للأحزاب نفسها؟ دستوراً يقوم عليه التحزب بكله، ثم أيضاً يعملون قانوناً للأحزاب نفسها، يعني ماذا؟ يُعتبَر نظاماً واحداً، ويقدِّمونه بصيغة واحدة بحيث يكون ماذا؟ يُعتبَر منظماً لشؤون هذه الأحزاب التي هي متعددة ومختلفة.

ثم ترى مثلاً مدينة مُعيَّنة، ترى فيها أطباء ومهندسين ووزراء وعسكريين وإداريين وأصحاب مهن متعددة يعملون دستوراً على أساس أن ينظم حياة هؤلاء، ويجب أن يكون من جهة واحدة، وألاّ تُخضَع نصوصه لتفسيرات الناس ولا لآرائهم وترجيحاتهم، أي: لاحِظ هذا في النظام الديمقراطي فترى كيف أنه أوصل الناس الذين قدَّموا مناهج أخرى من داخل المسلمين أوصلوا الإسلام إلى أن جعلوه بعيداً بشكل رهيب جداً، أي: لم يعد ولا حتى مثل الديمقراطية، بل مفتوح هكذا ثغرات، فلا تبتني عليه أمة ولا يقوم عليه نظام على الإطلاق.

في الديمقراطية هم يحاولون بهذا: أنه فيما لو حصل اختلاف في فهم نص دستوري، فليس الموضوع يخضع لاجتهادات المختلفين، هناك محكمة دستورية فيها شُعبة مُعيَّنة تختص بتفسير نصوص الدستور، وهل يسمحون في القوانين عندما ينزل قانون من مجلس النواب هل يسمحون للقانونيين والاقتصاديين والمثقفين

أن يقدِّموا اجتهادات وكل واحد مُلزَم بما أدى إليه نظره؟ وكل واحد يقلده مَن قلد؟! أي: القضية يعرفها الناس بأنها خطأ، وقد أصبحت معروفة بأنها خطأ، بكل وسائل المعرفة ولا نزال متشبثين بها في دين الله الذي هو نظام للبشر جميعاً؛ لتقوم عليه أمة واحدة!

﴿يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(آل عمران:١٠٦) بعد التبيين الكامل، بعد هذا الهدى الكامل، لم يبقَ إلاّ ماذا؟ بياض وجوه وسواد وجوه، أعمال تسوِّد الوجه أو أعمال تبيِّض الوجه، مواقف تبيِّض الوجه أو مواقف تسوِّد الوجه، المختلفون المتفرقون لا يصدر مِن لديهم إلاّ مواقف تسوِّد الوجه، كيف مواقف الناس الآن العرب بشكل عام؟ كيف هي؟ في معظمها مواقف تسوِّد الوجه.

تلاحِظ أن هدى الله سبحانه وتعالى لا يُقدَّم كقضية وعلى كيفك وإلاّ فلا يوجد تَبِعات، بعدها يحصل لها آثار سيئة أو آثار إيجابية في الدنيا والآخرة. بعدما يوجِّه الناس كيف يكونون معتصمين به معتصمين بحبله متقين له ويكونون أمة على هذا النحو، يكونون مبتعدين تماماً عن التفرق والاختلاف يقول بعدها: ﴿يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ﴾ أي: هذا هدى يجب أن يسيروا عليه، بعده عقوبات رهيبة، بعد التفريط فيه ونتيجة التفريط فيه عقوبات شديدة.

﴿يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾(آل عمران:١٠٦) لاحِظ معناها ماذا؟ مِن داخل مَن؟ من داخل من قد أطلِق عليهم اسم إيمان، وانتسبوا إلى مسمَّى إيمان وإسلام. ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ ماذا يقال للمختلفين الذين يُؤصِّلون التفرق والاختلاف يُؤصِّلونه ويُسوِّغونه بعدما قال إن هناك بينات وبعدما نهى عنه؟ أليس هذا يسمى رفضاً؟ يسمى كفراً بعد إيمان، حقيقة، هذا المعنى الذي نقوله دائماً إنه واسع داخل دائرة من هم منتمون إلى هذا الدِّين.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ لأن التفريط في هذا الهدى قد يجعل الكثير في الأخير يعملون أعمالاً تسوِّد الوجه، كفر بعد إيمان، أعمال تسوِّد الوجه عندما يكون قد صار يشتغل مع بني إسرائيل ألد أعداء الأمة أخبث أعداء البشرية، ثم تراه قد صار يشتغل معهم تحت أي عبارات أو تحت أي مسميات، أليست هذه قضية ملموسة؟ قد صاروا يحاولون أن ينفذوا أيَّ توجيه من أمريكا، مناهج (مستعدون أن نغيِّر مناهج) زيّ مُعيَّن (مستعدون لزيٍّ مُعيَّن) وهكذا! معناه بأنه أخسّ موقف، تنصرف عن هدى الله، ويوصلك هذا الانصراف إلى أن تصبح تتبنى مواقف سيئة جداً تسوِّد وجهك.

﴿فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ﴾ يقال لهم يوم القيامة: ﴿أَكَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنتُمْ تَكْفُرُونَ﴾(آل عمران:١٠٦).

﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ﴾(آل عمران:١٠٧) هؤلاء الذين ساروا على هدى الله ووثقوا بأن هدى الله شامل، ووثقوا بأن توجيهاته كاملة، وأنه يرسم الطريقة المتكاملة التي تسمى صراطاً مستقيماً، تكون مواقفهم في الأخير مواقف تبيِّض وجوههم ﴿وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾(آل عمران:١٠٧) سمَّى الجنة رحمة، وفي رحمته من الدنيا إلى الآخرة، أي: رحمة لا يخرجون عنها من الدنيا أمَّا الآخرة فقد صارت هي تلك الرحمة الأبدية.

إذا أحد تأمل في مواقف الناس في هذا الزمن في مواجهة ما يحصل من جانب أمريكا وإسرائيل، ألسنا نجد فيها – نحن مع قصور فهمنا كبشر – أنها مواقف تسوِّد الوجه عندما تسمع أن الأمريكي مُتجه، اليهود والنصارى متجهون إلى أن يُخْفَى كتاب الله (كثير من آياته) من مدارس ومساجد، وعندما تسمع أنه في العراق – فعلاً – قالوا بأن نفس الحاكم الأمريكي أصدر توجيهات إلى أئمة المساجد ألاّ يقرؤوا في الصلاة الآيات التي فيها جهاد، معناه أنهم قد صاروا يتحكمون في هذا الموضوع ويوجهون الناس إلى أن يخفوا كثيراً من آيات الله ويتأقلموا معها، أليست هذه مواقف تسوِّد الوجه؟ مواقف سيئة جداً.

﴿تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيكَ بِالْحَقِّ وَمَا اللَّهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:١٠٨) هذه حقائق ﴿نَتْلُوهَا عَلَيكَ﴾ هي ليست مقترحاً من أيِّ طرف آخر، بل من جهة الله سبحانه وتعالى ﴿بِالْحَقِّ﴾ أي: هي نفسها حق، وأن تتلى عليك هو حق، وأن تنزل إليك حق، قضية هامة، أي: تقتضي حكمته أن يوجِّه بهذه التوجيهات الهامة.

﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلعَالَمِينَ﴾ هذه التوجيهات الهامة من أول ما يقول لهم أن يعتصموا به يعتصموا بحبله، ويوجه كيف يكونون؛ لأنه لا يريد أن يُظلَم الناس، العالمين، فما بالك بأوليائه ما بالك بمن هم متجهون إلى أن

يسيروا إلى الالتزام بدينه ﴿وَمَا اللهُ يُرِيدُ ظُلْمًا لِلعَالَمِينَ﴾ معناه بأنه إذا لم يكن هناك تمسك بهذه فسيُظلَمون، وهو يعلم أنهم سيُظلَمون ويعلم أنهم إذا لم يتمسكوا، إذا لم يسيروا على هديه سيُظلَمون؛ فلهذا هداهم لئلا يُظلَموا، لأنه لا يريد أن يُظلَموا، لكن عندما تكون أنت لا تبالي، قد صرتَ راغباً أن تُظلَم، فهناك الله يقول: ﴿فَإِنَّ اللهَ غَنِيٌّ عَنِ الْعَالَمِينَ﴾(آل عمران:٩٧) هذه قاعدة تراها في كل شيء، يُقدِّم لك هو لا يريد أن تُظلَم، هذا هدى لك بالشكل الذي يجعلك بعيداً عن أن تُظلَم إذا لم يكن هناك توجُّه ولا اهتداء فستُظلَم وسيعاقبك أيضاً هو من عنده ﴿يَومَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ﴾(آل عمران:١٠٦).

يقول بعد هذه الآية: ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ﴾(آل عمران:١٠٩) لاحظ كيف تنسف أيَّ "تطانين"[1] من داخل قد تُقعِد الإنسان عندما قال هناك: ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا﴾(آل عمران:١٠٣) ذكر أنه يتدخل فيؤلف بين قلوبهم، عندما يقول: (نحن أعداء ومفرقون، كيف نعمل؟!) ذكر أنه يتدخل. عندما تقول: (لكن الأعداء كبار وأقوياء وكثير وهم، وهم...إلخ) هو يقول لك: الذي هدى الناس إلى هذه – ولأنه لا يريد أن يُظلَموا – هو مَن له ملك السموات والأرض ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾(آل عمران:١٠٩) لأنك ترى أمامك قائمة من الأمور وتراها بشكل كبير أمامك تحول بينك وبين أن تتوجه، تقول: (صحيح، باهر) وهذا هو الذي هو حاصل عند الناس (صحيح، وباهر، لكن...) أليسوا في الأخير يقولون: (لكن يوجد هناك أمور كبيرة، أمريكا، إسرائيل، العرب كذا...) يعمل لك قائمة أمور، أليس كذلك؟

وهنا يعمل الله وعداً للناس إذا ساروا على هداه بأن إليه ترجع الأمور، كثير من هذه الأشياء هو يزيحها، ويعمل متغيرات كثيرة، فأنت عندما تتجه على هداه، هو إليه ترجع الأمور، لا يكون أمامك شيء من هذه الأشياء هو الذي يُغيِّر في هذه الحياة ﴿وَإِلَيهِ يُرْجَعُ الأَمْرُ كُلُّهُ﴾(هود:١٢٣) كما قال في أكثر من آية، هذه يكررها عدة مرات في القرآن، عندما تقعد عن هذا الهدى على أساس مراعاة لهذه الأمور وكأنك قد ارتضيت لنفسك طريقة تتأقلم بها مع هذه الأشياء الكبيرة أمامك لتسلَم، فافهم، لا، إليه تُرجَع الأمور، سيضربك بمن تحاول أن تتأقلم معهم لتسلَم شرهم، مثلما هو حاصل عند العرب الآن، أمثلة كثيرة جداً جداً من واقع الأمة الآن.

الذين يقولون: (لا نستطيع، ولا معنا، وهم كذا، وهم كذا، معهم، ومعهم، ومعهم، ونحن ليس معنا، ولا معنا) أليسوا يعملون قائمة أمور؟ أليست هذه الفكرة تُقعِدهم؟ ناسين لهذه الآية ﴿وَلِلَّهِ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَإِلَى اللَّهِ تُرْجَعُ الأُمُورُ﴾ وكم كررها في القرآن.

﴿كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَونَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾(آل عمران:١١٠) أن تُختار هذه الأمة أن تكون هي التي ماذا؟ تحمل راية الإسلام، مِن داخلها نبي الإسلام، ينزل في وسطها القرآن الكريم، يكون هذا القرآن بِلُغتِهَا، اختيرت لتقوم بهذه المهمة على أساس هذا الاعتبار، لا يعني أنها حصلت غلطة: أنه أوكل إلى هذه الأمة واتضح أنها ليست أهلاً، لا، هي في واقعها كانت تُعتبَر أحسن أمة مقارنة بأمم أخرى، والاعتبارات تكون أشياء واسعة لا نستطيع أن نحيط بها ولا نعرف القليل منها، اعتبارات أن تكون هذه الأمة أحسن من تلك الأمة بأن تكون هي محطّاً لأن تنهض بالرسالة، وأن يكون الناس منها هم جنود هذه الرسالة، لكن مهما كان أيُّ خيِّر سواءً على مستوى شخص أو على مستوى أمة مرتبط بأن يسير على الهدى الذي وجِّه إليه.

المهم الذي يمكن أن نفهمه من هذه الآية ﴿كُنتُمْ خَيرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ أنه من البداية عندما تُختار هذه الأمة لهذه المهمة، معناه ماذا؟ مقارنة بأمم أخرى، هي أحسن أمة يُوكَل إليها هذه المهمة، يُصطَفى النبي منها وتحمل هذه الرسالة ويكون القرآن بلُغتها.

مثلما قال عن بني إسرائيل، ألم يقل: ﴿وَلَقَدِ اخْتَرْنَاهُمْ عَلَى عِلْمٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾(الدخان:٣٢)؟ هو الذي يختار أمة، والاختيار مبني على أساس: فليسيروا على هديه وليلتزموا بكتبه، حصل خلل عندهم فنبذهم، فهذه الأمة لا تزال إلى الآن تقول: (وكذلك جعلناكم أمة وسطاً، نحن خير أمة...) الخيرية هنا مرتبطة بماذا؟ بمسؤولية، بمهمة، وإلاَّ فسيكون الذي يقابلها انحطاطاً، الذي يقابلها سقوطاً.

لننظر في التاريخ كم كانت خير أمة؟ فترة قصيرة فقط قد تجدها ربما أيام رسول الله (صلى الله عليه وعلى آله وسلم) في حركتها، كان لها أثر كبير وإنجازات كبيرة، ومن بعد حصلت خلخلة رهيبة جداً.

لكن قد تكون هناك لا تزال بقايا مقومات إذا وُجِد توجيه إليها واستغلال لها وتذكير للأمة، بأن ماذا؟ تستغل ما لديها من مقومات تجعلها فعلاً تعود إلى أن تكون خير أمة، ألسنا نجد في الحديث عن بني إسرائيل أنه يتكلم

(١) التَّطَانِيْن: مِنَ اللهجة العامية، وتعني: الوَسَاوِس.

كثيراً ثم يدعوهم، ثم يقول: إنه لا ينبغي أن تكونوا أول كافر به؟ حتى في هذه الآية ﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾(آل عمران: ١١٠) وهناك يقول: ﴿لِمَ تَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ﴾(آل عمران:٧٠).

﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ﴾ ثم يُبيِّن بأنها مسؤولية عامة للناس، وأن مسؤوليتهم هي مرتبطة بالناس جميعاً، هي الرسالة التي هي للعالمين، القرآن للعالمين، والرسول للعالمين، مهمة هذه الأمة هي ماذا؟ أن تتحرك بهذه الرسالة في العالمين في الناس ﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ﴾(آل عمران:١١٠).

إذاً فقد اختار الأمة، وأعطاها التوجيهات الكاملة التي تجعلها فعلاً قادرة على النهوض بمسؤوليتها، فحصل الخلل من داخلها، حصل خلل من داخلها بمعنى: أنه في الأخير لا تقول: ربما لو اختار الله أمة أخرى ربما كانت القضية ستنجح أو ربما هناك تقصير في كذا، لا، هو يختار، ويختار أفضل منهج، لكن تجد الناس أنفسهم تحصل خلخلة من عندهم هم، ويحصل ابتعاد من عندهم، ويضيعون مسؤولياتهم هم، ومع هذا لا يقول: يكفي، غلطت هذه الأمة ويكفي. لا يزال التوجيه قائماً، ولا تزال الإمكانيات للنهوض بالمسؤولية قائمة، أي: ممكن، أليس القرآن كتاباً يعطي هدى في كل زمن؟ يعطي هدى في كل زمن، يمكن للأمة أن تنهض به من جديد، وتأخذ عبرة من ماضيها، تأخذ عبرة من تاريخها كيف تدنت، كيف سقطت؛ لتعود لتنهض بشكل صحيح.

﴿تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ الآن لاحِظ كيف تُقدَّم مسؤولية الأمة الآن؟ كيف تُوجَّه؟ تُوجَّه إلى أن تقبل بالآخر، لا تعترض على منكره، لا تُقدِّم ما لديها من معروف، أي: لا تأمر بمعروف ولا تنهى عن منكر، وتؤمن بالآخر أكثر من إيمانها بالله، أليس هذا من الأشياء الرهيبة جداً؟ بسبب حكامها، بسبب علماء سوء في داخلها.

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَهُم﴾(آل عمران:١١٠) بمعنى أن الله سبحانه وتعالى يُريد لكل الناس أن يؤمنوا، هذه القضية هامة جداً، سيأتي بعدها حديث عن أهل الكتاب بشكل آخر، بمعنى أنهم في نفس الوقت الذي ترى هذه الأمة بأنها خير أمة وأنها أوكل إليها هذه المهمة ونزل القرآن بلغتها والنبي منها الذي هو للعالمين جميعاً، أنها لا تزال قضية تلحظ فتنظر نفس النظرة القرآنية أنها تود أن يؤمن الآخرون كلهم، ألم يقل هناك في البداية ﴿وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ﴾(آل عمران: ١٠٤)؟ يكون عندها نظرة خيِّرة، عندها روح خيِّرة، أي: لا تَعتبِر نفسها وكأنها متكتلة تكتلاً إقليمياً، تكتلاً شخصياً، بل هي تقوم بمسؤولية ومهمة، هذه المهمة أساسها أنها ترغب في أن يؤمن الكل.

﴿وَلَوْ آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيْرًا لَّهُم مِّنْهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران: ١١٠) يذكرنا أيضاً بأهل الكتاب، كما قال في سورة أخرى عندما ذكر فئات ممن مضوا من بعد نوح عليه السلام ثم وجَّه المسلمين توجيهاً ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ * لِّئَلَّا يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ أَلَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَيْءٍ مِّن فَضْلِ اللَّهِ وَأَنَّ الْفَضْلَ بِيَدِ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ﴾(الحديد:٢٨، ٢٩) بعدما قال من أيام نوح إنه أورثهم الكتاب والنبوة، ثم يذكر بأنهم: قليل مؤمنون وأكثرهم فاسقون، في مرحلتين هو عدّدها في (سورة الحديد) بينها علاقة وبين هذه الآية؛ ليفهم الناس أن دورهم هو الدور النهائي فعليهم أن يحذروا ألاّ يكونوا كالسابقين.

بعدما قال: ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾(الحديد:٢٥) هذه المهمة الرئيسية للأمم. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا وَإِبْرَاهِيمَ وَجَعَلْنَا فِي ذُرِّيَّتِهِمَا النُّبُوَّةَ وَالْكِتَابَ فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾ ألم يقل هنا: ﴿فَمِنْهُم مُّهْتَدٍ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾؟ ﴿ثُمَّ قَفَّيْنَا عَلَىٰ آثَارِهِم بِرُسُلِنَا وَقَفَّيْنَا بِعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ وَآتَيْنَاهُ الْإِنجِيلَ وَجَعَلْنَا فِي قُلُوبِ الَّذِينَ اتَّبَعُوهُ رَأْفَةً وَرَحْمَةً وَرَهْبَانِيَّةً ابْتَدَعُوهَا مَا كَتَبْنَاهَا عَلَيْهِمْ إِلَّا ابْتِغَاءَ رِضْوَانِ اللَّهِ فَمَا رَعَوْهَا حَقَّ رِعَايَتِهَا فَآتَيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا مِنْهُمْ أَجْرَهُمْ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد:٢٦، ٢٧) لاحِظ فيما ذكر أن هناك أمماً "سحطت"(١) كما نقول، أليس كذلك؟

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا﴾ هذا تذكير لهذه الأمة أنها تعرف مسؤوليتها ودورها الهام، كأنه يقول: (بقي أنتم الذين أُنزل إليكم هذا الكتاب وبُعث منكم هذا الرسول) أليس كذلك؟ ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَآمِنُوا بِرَسُولِهِ يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ﴾(الحديد:٢٨) لالتزامكم، ولتقدِّموا أنفسكم مثلاً أعلى يكون في مقابل الذين كانوا ماذا؟ ﴿وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد: ٢٧) ﴿يُؤْتِكُمْ كِفْلَيْنِ مِن رَّحْمَتِهِ وَيَجْعَل لَّكُمْ نُورًا تَمْشُونَ بِهِ وَيَغْفِرْ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ

(١) سَحِطَتْ: من اللهجة العامية، ويقصد هنا: ضاعت.

رَحِيمٌ * لِئَلاَّ يَعْلَمَ أَهْلُ الْكِتَابِ﴾(الحديد:٢٨، ٢٩) حتى لا يأتي أهل الكتاب يقولون: (إذاً كل الأمم فاشلة وما أعطي لغيرنا من فضل هو لا يصلح له) معناها أثبتوا جدارتكم: قَدِّموا من أنفسكم شهداء على أن الله يختص برحمته من يشاء ويختص بفضله من يشاء، لا تجعلوا أهل الكتاب يتشبثون بما هم عليه ويرون بأن نظرتهم فعلاً وكأنها واقعية: أنه لا يَصْلُح للدِّين – على الرغم مما حصل لديهم – إلاّ هُمْ، وأنه (انظروا إلى الآخرين كيف جاء منهم نبوّة وكتاب، كيف وصل الحال فيهم).

معنى هذا أن واقع هذه الأمة خطير جداً، عليها مسؤولية كبيرة جداً؛ لأنها تمثل شهادة، هنا يقول أيضاً: ﴿وَلَو آمَنَ أَهْلُ الْكِتَابِ لَكَانَ خَيرًا لَهُم مِنهُمُ الْمُؤْمِنُونَ وَأَكْثَرُهُمُ الْفَاسِقُونَ﴾(آل عمران:١١٠) انتبهوا أنتم أيضاً، أنتم خير أمة اختيرت لهذه المهمة، لا تصبح النتيجة على هذا النحو.

الآن تصبح المسألة في الأخير مثلما نقول: (كنا أمة أو كانوا) أليس العرب الآن يقولون: (كنا، وكنا، ويوم كنا وصلنا إلى الصين، ووصلنا إلى فرنسا، ووصلنا إلى...)؟ أليس كذلك؟

﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً﴾ عندما تكونون على هذا النحو وتهتدون بهدى الله وتجعلون من أنفسكم أمة تنطلق بهذه المسؤولية على أساس هدى الله، فمهما كان الطرف الآخر ومهما كان لديهم من نوايا سيئة ومؤامرات كبيرة وإمكانيات هائلة ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾ أليس هذا قمة الهداية من جهة الله؟ يعطي الناس توجيهاً ثم يرفقه بأنه وهو يعلم الغيب والشهادة وإليه ترجع الأمور، إذا كنتم على هذا النحو فهؤلاء مهما كانوا كباراً مهما كانت إمكانياتهم فستكون النتيجة هكذا: ﴿لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ﴾(آل عمران:١١١).

﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ﴾(آل عمران:١١٢) هذه نقطة الضعف فيهم؛ لهذا نقول: إن من النعمة على الناس على المؤمنين أن يكون أعداؤهم هم أعداء الله، وهم ممن استوجبوا غضب الله وضُرِبت عليهم الذلة والمسكنة، وممن استوجبوا أن يعذبهم عذاباً شديداً وعذاباً أليماً، على اختلاف الآيات في هذا الموضوع، بمعنى أن هذا يمثل أملاً في حد ذاته؛ لأن عدوك عندما يكون هو عدو الله يكون معناه ماذا؟ نقاط الضعف فيه كثيرة، نقاط الضعف لديه كبيرة جداً.

﴿ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللَّهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ وَبَاءُوا بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الْمَسْكَنَةُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ﴾ لاحظ هنا في تشخيص نفسية بني إسرائيل أنهم – فيما يتعلق بالمواجهة بعد أن ضَرَب الله عليهم الذلة والمسكنة – خَوَّافون جداً من موضوع القتال، هذا يعني ماذا في الأخير؟ ولهذا نقول أكثر من مرة: يجب أن نعرف نتلمس ما يعملون ونعرف بأن بإمكاننا أن نعمل أشياء كثيرة في مواجهتهم؛ لأنهم في المقابل يركّزون على الأشياء الأخرى: على الحرب النفسية، والحرب الثقافية، الحرب الاقتصادية، الحرب الإعلامية، أشياء كثيرة، يركّزون على وسائل أخرى بحيث ماذا؟ لا يصلون إلى أمة من الأمم إلاّ وقد صارت منهارة؛ لأنهم خَوَّافون جداً من موضوع القتال.

إذاً نحن بنظرتنا العربية مثلاً العرب قد يكونون فاهمين موضوع الصراع، أي: ماذا؟ قتال، قتال، أليس كذلك؟ لكن يجب أن تفهم الطرف الآخر، العدو الذي يتحرك في مواجهتك، يتحرك عندما يكون من هذه النوعية فاعرف بأنه يشتغل بوسائل أخرى متعددة، هذه هي حالة ضعف كبيرة فيه معظم الوسائل التي يشتغل بها هي عنده وسائل رئيسية، أساسية، وهي في نفس الوقت بالشكل الذي يمكن للناس أن يواجهوها، أن يتحركوا في مواجهتها، لكن عندما تأتي عند الناس يقولون: (ما معنا، ولا معنا) العربي دائماً ينظر إلى موضوع السلاح فقط، سلاح: سواءً سيفاً أو سلاح تفجيرات فقط.

نقول: هذا العدو نفسه خَوَّاف من هذه المسألة، يشتغل معك بطرق أخرى إذا نجحتَ في مواجهته في هذه الطرق الأخرى فلن يصل إليك بالسلاح، إذا استطاع الناس أن يُفشلوا أعماله الأساسية فلن يصل إليهم نهائياً.

لو أنهم أناس عندهم جُرْأة لَمَا أتعبوا أنفسهم في القضايا الأخرى، هم يعرفون بأنه من الناحية المادية فيما يتعلق بقدرات عسكرية بأنه لا يوجد توازن ما بين الناس وما بينهم، يمتلكون أن يضربوا الناس من عُلُوٍّ شاهق ومن بُعد مئات الأميال صواريخهم ومن أعماق البحار من الغواصات، ومع هذا كله مع هذه الإمكانيات ليس لديهم جُرْأة على مواجهة مسلحة هكذا، يعتمدون بشكل أساسي على الطرق الأخرى، بحيث إنهم لا يصلون إلى أمة من الأمم أو شعب من الشعوب إلاّ وقد ضُرِب أساساً قد صار منتهياً.

ولهذا تجدهم – على الرغم من أسلحتهم المتفوقة – لا يزال يخاف من البندقية هذا السلاح الشخصي، أليسوا يطوفون الأسواق ليروا إذا كان فيها أسلحة؟ ويظلون يحاولون كيف يلفقون تلفيقات لسحبها، ليضيعوها، هذه الأسلحة البسيطة كم الفارق بين الطلْقة (طلْقة رصاص) وبين الصاروخ الذي لديهم؟ ما زال خائفاً؛ لأنه لا يريد مواجهة مسلحة، لاحِظ كيف هم في العراق الآن؟ في العراق ألم يبدوا بحالة فيها ضعف كبير جداً؟ تأتي قذيفة مُعيَّنة ضرَبت عليهم مُدرَّعة أو ضربت ناقلة أو... وقُتِل مجموعة جنود؛ اهتزت أمريكا هناك، وتهتز معنويات الجنود في الداخل في العراق، فيتهرَّبون عبر تركيا وعبر سوريا، لكن متى وصلوا إلى العراق؟ متى ضربوه عسكرياً؟ بعد ضربات أخرى كثيرة.

ولهذا نحن نقول: على الناس أن يشتغلوا بهذه الوسائل، أشياء كثيرة في متناول الناس أن يعملوها إضافة إلى إعداد أنفسهم للمواجهة المسلحة؛ لأن هذه قضية أساسية: لا يأمن هذا العدو طرفك بأنك لا تواجهه؛ معنى هذا يتجرأ عليك، يعرف أنك مستعد بأن تواجهه بما لديك من سلاح مهما كان بسيطاً، وفي نفس الوقت يجب أن تشتغل بالطرق الأخرى: الموضوع الثقافي، موضوع الحرب النفسية، الحرب النفسية هي حرب واسعة وهم يركّزون عليها بشكل كبير، نحن نقول: مثل موضوع شعار ومقاطعة اقتصادية وتوجيه للناس على هذا النحو يعتبَر حرباً، يعتبَر تحصيناً للأمة من ماذا؟ من حربهم الحقيقية.

لكن لاحِظ من العجيب عندما لا يوجد رؤية بهذا الشكل وهي رؤية قرآنية يرشد إليها القرآن، يقولون: (ماذا نعمل؟!) وهم كل واحد يستطيع أن يعمل الكثير (ماذا نعمل؟) وسائل كثيرة يمكن أن تعملها: مطبوعات متوفرة، أشرطة متوفرة، الأموال، بأموال الناس بإمكانياتهم الحاصلة يستطيعون أن يكون لهم حركة ثقافية كبيرة، حركة دعائية ضد العدو كبيرة؛ لأنها أساس في القرآن فضْح العدو وما هو عليه ونواياه كذلك مواقف شعارات، الشعار يمثل حرباً نفسية بالنسبة لهم؛ لأنهم عندما يضربون في العراق ورأوا الناس هنا لم يسكتوا، لا يزال الشعار [**الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام**] رأوا أن هؤلاء لم يتأثروا نفسياً هو ينهزم نفسياً، هو في المقابل، أي: عندما يُفجِّر هناك فإنه بعد ذلك ينظر هنا ينظر كم الذين قد خافوا؟ كيف سيَظهر بأنك خفت منه، أن نفسيتك انهزمت؟ عندما يراك تراجعت. رأى الناس يرفعون شعارات من قبل أن يُضرَب العراق ومن بعد ما ضُرِب العراق وأثناء ضربه وأثناء عمله الدعائي الإعلامي الكبير الذي هو يمثل ماذا؟ حرباً نفسية: وجدهم لم يتراجعوا يحاول أن يسجن يحاول كذا فما تَراجعوا، هي في حد ذاتها حرب نفسية كبيرة في مواجهتهم، وإبطال لحرب نفسية من عندهم.

﴿**ضُرِبَتْ عَلَيهِمُ الذِّلَّةُ أَينَ مَا ثُقِفُوا إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**﴾(آل عمران:١١٢) متى يمكن أن يعطيهم حبلاً؟ – معناه سبب – متى ما ترك الآخرون حبله، ألم يقل هناك: ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبلِ اللهِ**﴾(آل عمران:١٠٣)؟ هناك قدَّم حبلاً في المقدمة لأوليائه، للناس، للمسلمين ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ**﴾ ما لم فسيعطيهم حبلاً من جهته: سنداً، وحبلاً من الناس يضربون الذين تركوا حبله، وهم في الأخير يسقطون هم مع الذين تركوا حبله.

لاحِظ هذه ألم يذكر هنا كلمة (حبل) بعدما ذكر (حبلاً) سابقاً؟ ﴿**وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللهِ جَمِيعًا**﴾ إن تعتصموا بهذا الحبل فستنتهي المسألة إلى هذه: ﴿**لَن يَضُرُّوكُمْ إِلاَّ أَذىً وَإِن يُقَاتِلُوكُمْ يُوَلُّوكُمُ الأَدْبَارَ ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ**﴾(آل عمران:١١١) (لأنهم كذا وكذا في واقعهم) ذلة ومسكنة وباؤوا بغضب...إلخ ﴿**إِلاَّ بِحَبْلٍ مِنَ اللهِ**﴾(آل عمران:١١٢) يعطيهم سبباً مُعيَّناً ﴿**وَحَبْلٍ مِنَ النَّاسِ**﴾ أليس معهم حبل من أمريكا وبريطانيا وفرنسا و... وحبل من داخل الأمة أيضاً يمدون لهم حبلاً من هنا من داخل حكومات العرب؟ فإذا تحرك الناس واعتصموا بحبله تُقطع الحبال الأخرى، معنى ﴿**ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ**﴾ فلا يبقى معهم حبل على الإطلاق؛ لأنه حتى بالنسبة للنصارى هم مكروهون لديهم إذا جئنا إلى نفس اليهود فالنصارى مكروهون لديهم، واليهود مكروهون لدى النصارى، وفي داخلهم عداوة وبغضاء فيما بينهم. ومن جهة الله يقطع كل الحبال ﴿**ثُمَّ لاَ يُنصَرُونَ**﴾ بهذه العبارة القاطعة. فعندما نتأمل – مثلاً – وجدناهم ينجحون في أشياء مُعيَّنة؛ فلأن هؤلاء تاركون لحبل الله ﴿**وَلِلَّهِ جُنُودُ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ**﴾(الفتح:٤).

بنو إسرائيل يقولون في تاريخهم، يوم كانت وضعيتهم كوضعية المسلمين الآن، بالنسبة لرسالتهم كان يُسلَّط عليهم من ألدِّ أعدائهم أحياناً المصريين وأحياناً الفلسطينيين وأحياناً البابليين.

﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ**﴾ الله ضرَب عليهم الذلة والمسكنة وباؤوا بغضب منه، وتُقدَّم في سورة البقرة (غضب على غضب) لماذا؟ هل هو موقف شخصي من أولئك؟ لا؛ لأنهم كانوا هكذا: ﴿**ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ كَانُوا يَكْفُرُونَ بِآيَاتِ اللهِ وَيَقْتُلُونَ الأَنبِيَاءَ بِغَيرِ حَقٍّ ذَلِكَ بِمَا عَصَوا وَكَانُوا يَعْتَدُونَ**﴾(البقرة:١١٢) فالعاصون والمعتدون

الكافرون بآيات الله من يحاربون الذين هم ورثة لأنبياء الله معناه في الأخير ماذا؟ تُضرَب عليهم الذلة والمسكنة كمثلهم كما ضُرِبت على أولئك، أي: عندما يقول: ذلك بأنهم كانوا كذا، كذا...إلخ، معناه مَن يَكُنْ على هذا النحو فهذا مصيره: تُضرَب عليهم الذلة والمسكنة.

﴿لَيْسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ * وَمَا يَفْعَلُوا مِنْ خَيرٍ فَلَن يُكْفَرُوهُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالْمُتَّقِينَ﴾(آل عمران:١١٣-١١٥) عندما يقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾ نجد كلما يأتي حديث كثير عنهم يرفع الإنسان عن أن يكون له موقف شخصي وعداوة شخصية، لماذا؟ لأن هذه مؤثرة جداً في حركتك وأنت تعرف أن هذا الدِّين هو للناس جميعاً، ثم يؤثر جداً في موقفك عندما تنطلق انطلاقة شخصية، أي: من عداوة شخصية، فأنت معرَّض ألاّ تثبت فعلاً؛ لأن الإنسان الذي ينطلق كموقف شخصي منهم، متى ما قدَّموا إحساناً هم من جانبهم فسيمحونه، وما تدري إلاّ وقد صار ماذا؟ موالياً لهم، لماذا؟ لأنه ينطلق انطلاقة شخصية، موقف شخصي، عداوة شخصية، هذه نفسها لا تشكّل ضمانة – على الإطلاق – للاستقامة والاستمرار لحمل هذه المسؤولية ومواجهتهم؛ لأن من أساليبهم هم أن يحاولوا أن يقدِّموا أشياء: خدمات مُعيَّنة، أو مساعدات مُعيَّنة، فعندما يكون لك موقف شخصي منهم باعتبار شخصي وليس باعتبار موقف مسؤولية إلهية دينية، معناه أنك في الأخير تكون معرَّضاً لأن يمحوه من نفسك بمجرد إحسان مُعيَّن يأتي إليك منهم، فتبرد.

ثم في نفس الوقت سيكون موقفك الشخصي على حساب رغبتك وحرصك أن يهتدي الناس جميعاً، تصبح أنت صادًّا عن سبيل الله، عندما يكون عندهم رغبة – سواءً أفراداً منهم أو كيفما كانت – عنده رغبة أن يعود إلى دين الله، لم تعد لديك أنت رغبة، لم تعد تريد أن يدخل، لم تعد تريد إلاّ أن تضربه كيفما كان؛ ولهذا فإن هذه قضية هامة جداً: أن يكون موقف الناس من أعداء الله موقفاً دينياً، ونظرتهم إليهم وفق نظرة القرآن الكريم وإلاّ فلن "يُرْوِسُوا"[1] لن ينجحوا بل سيكونون مُعرَّضين، وسيكونون صادِّين عن سبيل الله في حالات مُعيَّنة. ينظر الواحد للأشخاص الذين له موقف شخصي منهم بعضهم لا ترغب أن يهتدي، قد صارت رغبتك أن يبقى ضالاً كما هو، إذا أراد أن يهتدي لم تعد رغبتك أن يهتدي؛ لأن لك موقفاً شخصياً منه.

ثم هذا يعطي أيضاً تأكيداً بأن هذا الدِّين هو للعالمين جميعاً، فليترفع الناس عن النظرة الشخصية، النظرة الإقليمية، النظرة البشرية، وليتحركوا حركة على أساس دين الله، وينظروا للناس على أساس هذه النظرة القرآنية التي تمثل الاستقامة، وتجعل هذا الدِّين – فعلاً – ديناً عالمياً.

تأتي هذه في أكثر من مقام، الآية التي مررنا بها أنك ترى فيها دعوة لهم إلى الإيمان، ترى فيها عَرْض كثيرٍ من الأشياء التي تشجعهم على الإيمان، وترى فيها نظرة يأتي بصفحة أخرى، ألم يذكر صفحة مريم وعيسى وزكريا ويحيى وكل تلك التي قرأناها سابقاً؟ هنا يقول: ﴿لَيْسُوا سَوَاءً﴾(آل عمران:١١٣) كان فيهم أناس، أمَّا الآن لا يوجد مجال عندما يكون اليهودي على ما هو عليه تقول بأن هذه الآية تنطبق عليه هل ممكن؟ وهو يعطي صورة كاملة عن بني إسرائيل، عن تاريخ بني إسرائيل أيام تَنَزّل القرآن وما قبله يقول: كان يوجد في داخلهم أناس على هذا النحو، لم يكونوا كلهم على ما ذكر، كان الكثير منهم ﴿وَكَثِيرٌ مِنْهُمْ فَاسِقُونَ﴾(الحديد:١٦) أي: كان هناك على هذا النحو.

من قيمتها هذه: أن تنظر إلى الناس هذه النظرة القرآنية، تترفع عن الموقف الشخصي مهما كان لديك، أي: ممكن أن تغضب وتكون شديد الغضب؛ لأن القضية لا تتنافى مع الموقف على أعلى مستوى، يكون الناس أقوياء، وغضبهم شديداً، وأولي بأس شديد، لكن ولديهم إمكانية أن يعود الآخر إلى دين الله فيصبح منهم: له ما لهم وعليه ما عليهم، الآخر وأنت تَقدُم عليه بهذه الروحية، بهذه القوة، يعرف أنه لا يوجد لديك – على الإطلاق – تأطير للقضية؛ لأنك ماذا؟ تتحرك في إطار دين الله، ليس لديك تأطير لنفسك بحيث يعتبرك محتلاً ومستعمِراً، الأمريكيون هم فشلوا، لاحِظ كيف كانت عقبة أمامهم لديهم الحركة على هذا النحو لكن ويحتاج إلى أن يُقدِّم نفسه أمريكياً ومرتبطاً بإقليم مُعيَّن هي ماذا؟ أمريكا، وليس باستطاعته أنه يجعل العراقي ينظر إليه كما ينظر إلى أيِّ واحد من العراقيين، وليست نظرته هو إلى العراقي كما ينظر إلى أيِّ واحد من الأمريكيين، هل يستطيع الأمريكي في العراق أن يقول للعراقيين لكم ما لنا وعليكم ما علينا؟ أبداً.

العراقي يراه إنساناً منطلقاً من هناك مؤطراً نفسه بماذا؟ بنظرة إقليمية مُعيَّنة، وهو يريد أن يستغل ثرواتي لصالحه هناك، هذه القضية تعتبَر عقبة كبيرة أمام الأمريكيين، لا يستطيعون أن يُدجِّنوا الناس إلى درجة

---

(١) يُرْوِس: فعل من اللهجة العامية، أي: يصل إلى رأس الجبل.

أن يعتبروا أنفسهم كالأمريكيين سواءً، أو ينظروا هم إلى الناس وكأنهم أمريكيون تماماً لهم ما لهم وعليهم ما عليهم؛ لأن انطلاقتهم هي انطلاقة ماذا؟ إقليمية، فئوية، طائفية.

﴿لَيسُوا سَوَاءً مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٣، ١١٤) تجد هنا بياناً للصالحين، نحن نقول: إن من الأشياء التي يحصل فيها غلط بالنسبة لنا معاني كثير من العناوين الدِّينية: متقين، مؤمنين، صالحين وأشياء من هذه، من خلال القرآن تعرف المتقين، من خلاله تعرف الصالحين، هو قال في القرآن في آية أخرى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِن بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ﴾ (الأنبياء:١٠٥) هل يريد الناس أن يكونوا صالحين فيكونوا من ورثة الدنيا والآخرة؟ يجب أن يعرفوا كيف هم الصالحون كما عرضهم القرآن، لا أن تأتي أنت على ما أنت عليه من أخطاء ورؤى بعيدة عن القرآن ومفاهيم خاطئة تَعتبِر نفسك صالحاً ثم تقول في الأخير: (لكن لم نرث الأرض؛ إذاً فقد يراد بالأرض هنا أرض الجنة) أبعَدوا الآية عن أن يكون معناها هنا: هذه الأرض؛ لأنهم اعتبروا أنفسهم صالحين ورأوا أنفسهم لم يرثوا لا هم ولا أضرابهم، إذاً فالآية هي غير، أليس هنا رد الآية وحوَّلها على الآخرة؟

هنا يذكر عن الصالحين في أكثر من مقام من الأسس عند الصالحين أن يكونوا مسلِّمين لله، هذه قضية أساسية، ألم يقل عن إبراهيم نفسه عندما قال: ﴿رَبَّنَا وَاجْعَلْنَا مُسْلِمَينِ لَكَ وَمِن ذُرِّيَّتِنَا أُمَّةً مُّسْلِمَةً لَّكَ﴾ (البقرة:١٢٨) قال في مقام آخر: ﴿إِذْ قَالَ لَهُ رَبُّهُ أَسْلِمْ قَالَ أَسْلَمْتُ لِرَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (البقرة:١٣١)؟ ألم يقل هكذا؟ ماذا قال عنه؟ ﴿وَآتَينَاهُ أَجْرَهُ فِي الدُّنْيَا وَإِنَّهُ فِي الآخِرَةِ لَمِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (العنكبوت:٢٧) من الصالحين، هكذا الصالحون، والصالح في الدنيا وفي الآخرة، لاحظ نبي الله سليمان كان عنده قضية أساسية، موضوع صالحين، ألم يقل هناك: ﴿وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (النمل:١٩)؟ وهنا يقول أيضاً: ﴿وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٤) بعدما قال عنهم: ﴿أُمَّةٌ قَائِمَةٌ يَتْلُونَ آيَاتِ اللَّهِ آنَاءَ اللَّيلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ * يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَومِ الآخِرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُسَارِعُونَ فِي الْخَيرَاتِ وَأُولَئِكَ مِنَ الصَّالِحِينَ﴾ (آل عمران:١١٣، ١١٤) هذه نوعية من الصالحين.

حصلت أخطاء كبيرة: اعتبرنا أنفسنا أهل حق، واعتبرنا أنفسنا صالحين، ورأينا أننا لم نستطع أن نقيم حقاً ولا نرث أرضاً، ولا شيء فقلنا: (إذاً الحق ليس معه مكان، والدنيا هي لأهل الباطل، وأهل الحق دائماً يكونون ضعافاً لا يستطيعون أن ينجحوا في شيء) ألم يرجعوا على الأسس والقيم هناك يضربونها، على أساس أنه على حق، لا، قيِّم نفسك هنا اترك القرآن على أصله، واعرض نفسك واعرض ما لديك عليه، لا أن تحاول أن تؤقلمه هو ومصطلحاته معك وتنطلق تفسره تفسيراً آخر. أمَّا هو فيرد ويرفض أيَّ تفسير يتنافى معه (نحن أهل حق، لكن هذا الحق لم يستقم، إذاً أهل الحق لا ينجحون في الدنيا نهائياً) قل هذه واحدة.

(صالحين، صالحين، لكن وجدنا صالحين لا ينجحون؛ إذاً فالدنيا ليست مكاناً للصالحين، فوراثة الأرض تعني أرض الجنة) أليست هذه كلها مبنية على نظرة أنه متمسك بمفهوم الحق لديه (ما هو) ويجعل ما لديه هو حقاً؟ بدل أن يقيِّم نفسه على القرآن يحاول أن يرد القرآن لديه، وينزل مفاهيم معارضة بشكل كامل للقرآن الكريم حتى يُضل أيضاً الذي بعده!

إلى هنا، وصلى الله على سيدنا محمد وعلى آله الطاهرين.

[الله أكبر / الموت لأمريكا / الموت لإسرائيل / اللعنة على اليهود / النصر للإسلام]

تم هذا الإخراج الجديد بعد مزيد من
المراجعة والمقابلة مع (الكاسيت) الصوتي
بتاريخ: ٢٨ جمادى الآخرة ١٤٤٢هـ
الموافق: ١٠/ ٢/ ٢٠٢١م

قاطعوا البضائع الأمريكية و الإسرائيلية	بِسۡمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ	الله أكبر الموت لأمريكا الموت لإسرائيل اللعنة على اليهود النصر للإسلام

دروس من هدي القرآن الكريم

ألقاها السيد / حسين بدر الدين الحوثي

دروس من سورة آل عمران	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/٨م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/٩م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١١م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٢م
دروس من سورة المائـــدة	الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٣م	الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٤م	الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/١٥م	الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/١٦م
دروس معرفـــــة الله				
الثقة بالله - الدرس الأول ٢٠٠٢/١/١٨م	نعم الله الدرس الثاني ٢٠٠٢/١/١٩م	نعم الله الدرس الثالث ٢٠٠٢/١/٢٠م	نعم الله الدرس الرابع ٢٠٠٢/١/٢١م	نعم الله الدرس الخامس ٢٠٠٢/١/٢٢م
عظمة الله الدرس السادس ٢٠٠٢/١/٢٣م	عظمة الله الدرس السابع ٢٠٠٢/١/٢٥م	عظمة الله الدرس الثامن ٢٠٠٢/١/٢٦م	وعده ووعيده الدرس التاسع ٢٠٠٢/١/٢٨م	وعده ووعيده الدرس العاشر ٢٠٠٢/١/٢٩م
وعده ووعيده الدرس الحادي عشر ٢٠٠٢/١/٣٠م	وعده ووعيده الدرس الثاني عشر ٢٠٠٢/٢/٤م	وعده ووعيده الدرس الثالث عشر ٢٠٠٢/٢/٥م	وعده ووعيده الدرس الرابع عشر ٢٠٠٢/٢/٦م	وعده ووعيده الدرس الخامس عشر ٢٠٠٢/٢/٨م
دروس متفرقـــــة				
الصرخة في وجه المستكبرين ١٧/ ١/ ٢٠٠٢م	{اشْتَرَوْا بِآيَاتِ اللّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً} ٢٠٠٢/١/٢٤م	الهوية الإيمانية ٢٠٠٢/١/٣١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (١) ٢٠٠٢/٢/١م	في ظلال دعاء مكارم الأخلاق (٢) ٢٠٠٢/٢/٢م
خطر دخول أمريكا اليمن ٢٠٠٢/٢/٣م	لتحذن حذو بني إسرائيل ٢٠٠٢/٢/٧م	معنى الصلاة على محمد وعلى آل محمد ٢٠٠٢/٢/٨م	معنى التسبيح ٢٠٠٢/٢/٩م	{وَلَن تَرْضَى عَنكَ الْيَهُودُ وَلاَ النَّصَارَى} ٢٠٠٢/٢/١٠م
{وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ} ٢٠٠٢/٢/١١م	الإرهاب والسلام ٢٠٠٢/٣/٨م	مسؤولية طلاب العلوم الدينية ٢٠٠٢/٣/٩م	خطورة المرحلة ٢٠٠٢/٣/١٦م	دروس من وحي عاشوراء ٢٠٠٢/٣/٢٣م
{وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلّهِ} ٢٠٠٢/٧/٢٦م	الثقافة القرآنية ٢٠٠٢/٨/٤م	آيات من سورة الكهف الجمعة ٢٠٠٣/٨/٢٩م	{وَأَنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ} ٢٠٠٢/٩/٢م	الإسلام وثقافة الاتباع ٢٠٠٢/٩/٢م
لا عذر للجميع أمام الله ١٤٢٢/١٢/٢١هـ	مسؤولية أهل البيت ٢٠٠٢/١٢/٢١م	أمر الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٢هـ	يوم القدس العالمي ٢٨ رمضان ١٤٢٢هـ	دروس من غزوة أحد ذو الحجة ١٤٢٢هـ
آيات من سورة الواقعة ١٠ رمضان ١٤٢٣هـ	الشعار سلاح وموقف ١١ رمضان ١٤٢٣هـ	ذكرى استشهاد الإمام علي عليه السلام ١٩ رمضان١٤٢٣هـ	حديث الولاية ١٨ من ذي الحجة ١٤٢٣هـ	{وَأَقِمِ الصَّلاَةَ لِذِكْرِي} ١٤٢٣هـ
الموالاة والمعاداة ١٤٢٣هـ	{إِنَّ الَّذِينَ قَالُوا رَبُّنَا اللَّهُ ثُمَّ اسْتَقَامُوا}	الوحدة الإيمانية	{فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُم مِّنِّي هُدًى}	{وَسَارِعُوا إِلَى مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ}
من نحن ومن هم	دروس مديح القرآن من الدرس الأول إلى الدرس السابع من تاريخ ٥/٢٨ /٢٠٠٣م إلى تاريخ ٢٠٠٣/٦/٣م			
دروس شهر رمضان المبارك ١٤٢٤ هـ				
سورة البقرة: الآيات (٢١- ٣٩) ٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٤٠ - ٦٦) ٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (٦٧-١٠٣) ٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات (١٠٤-١١٤) ٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١١٥-١٤٥) ٧ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة البقرة: الآيات (١٤٦-١٨٦) ٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(١٨٥-٢١٤) ٩ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢١٥-٢٥٢) ١٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة البقرة: الآيات(٢٥٢-٢٧٤) ١١ رمضان ١٤٢٤هـ	الآيات(٢٧٥من البقرة-٣٢ من آل عمران) ١٢ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة آل عمران: الآيات (٣٣-٩١) ١٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (٩٢-١١٦) ١٤ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة آل عمران: الآيات (١٦١- آخر السورة) ١٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (١ - ٤٢) ١٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة النساء: الآيات (٤٣-١١٦) ١٨ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة النساء: الآيات (١٣٥ - آخر السورة) ٢٠ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (١ - ٢٦) ٢١ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٢٧ - ٥٧) ٢٢ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة المائدة: الآيات (٥٥ - آخر السورة) ٢٣ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١ - ٣٩) ٢٤ رمضان ١٤٢٤هـ
سورة الأنعام: الآيات (٣٩ - ١٠٢) ٢٥ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأنعام: الآيات (١٠٣ - آخر السورة) ٢٦ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١ -١٣٧) ٢٧ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٣٨-١٦٢) ٢٨ رمضان ١٤٢٤هـ	سورة الأعراف: الآيات (١٦٣- آخر السورة) ٢٩ رمضان١٤٢٤هـ